

سُرِقَ المُسْتَقْبَل

أَوْ

سَبَاقٌ مَعَ الزَّمَنِ

رواية

بوجمعة حدوش

الكتاب: سُرقَ المستقبل أو سباق مع الزمن

المؤلف: بوجمعة حدوش

الطبعة الأولى: شتنبر 2018

رقم الإيداع القانوني: 2018MO 4062

الترقيم الدولي: 978-9920-783-00-2

للتواصل مع الكاتب:

الحساب الفايسبوكي:

<https://web.facebook.com/hadouchboujam3a>

البريد الإلكتروني: boujamaa_hadouch@hotmail.com

”قد تتساءل أو تتساءلين وأنت تقرأ أو تقرئين هذه الرواية،

هل هي حقيقة أم خيال؟

أهمس في أذنك قائلاً:

”الحقيقة خيال إذا أنكرتها والخيال حقيقة إذا صدقته”

(1)

كانت تلك الليلة في ذلك الحي الشعبي شديدة الظلمة قاتمة السواد، إلا من أضواء باهتة لمصابيح إنارة صفراء ضعيفة متفرقة، كأنها ما وُضعت إلا لتتير نفسها، بل جزؤها العلوي فقط، وقد صارت إضاءتها أكثر شحوبا من المعتاد، كأنها فشلت في القيام بدورها السرمدى لَمَّا وجدت مكونات الطبيعة لا تساعد على القيام بعملها، حتى القمر في ذلك اليوم لم يكن مستعدا لخوض عناد وتجاذب مع السحب التي تحجب عنه بمرح رؤية وجه الأرض ليلا.

لم يكن بأزقة الحي الشعبي أحد من المارة، فما الذي سيقومون به في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل التي تجاوزت الثانية، في مثل هذه الأجواء الباردة التي تُذكر ببرودة فصل الشتاء، على الرغم من أنهم ودَّعوا فصل الصيف حديثا، وها هم الآن على أهبة الاستعداد لاستقبال الخريف.

الشوارع والأزقة تُشبه الإنسان، هو يستعد للنوم إذا أحس بالتعب، وأزره بموازاة ذلك اختفاء ضوضاء وضجيج النهار، وهي كذلك، فقد وَجَدت الشوارع فرصتها هي الأخرى للراحة والاسترخاء بعدما

أنهكتها أرجل المارة نهاراً، فكأنها استلقت على ظهرها مستعدة للرقود والإغفاء، إلا أن ظن زُقاق منها خاب كما يخيب ظن المرأة النائمة لتوها عندما يوقظها ابنها الرضيع بصراخه وبكائه في منتصف الليل يشكو الجوع والعطش، وهكذا خاب ظن هذا الزقاق عندما شعر بقدمي أحدهم فوقه يُسارع الخطى نحو إحدى البنايات، كأنه يسارعُها خوفاً من إيقاظ الشارع من هفوته.

وقف هذا الشخص المجهول مستندا بظهره ورأسه على عمود من أعمدة الكهرباء، أخذت ملامح وجهه تظهر شيئاً فشيئاً، كان طويل القامة، متوسط بنية الجسم لا بالهزيل ولا بالبدين، تدل سحنة وجهه وهيئة جسمه على أنه لم يتخط عقده الثالث، يلبس قميصاً أسوداً رغم برودة الطقس، وسروال جينز ضيق، و حذاء رياضياً، شعره متجعد، صقر في نظراته، كثين الحاجبين، يبدو من منظر هيأته وحركاته أنه مدمن على نوع ما من أنواع المخدرات، والتي قد تجعل صاحبها يفعل ما لا يخطر على بال للحصول على ما يريد، يزيد الأمر ريبية من الرجل أن في الجهة اليمنى من وجهه وسُمٌ لجرح كشجة خنجر، وفي مرفق يده اليسرى وشم يُنبئ بأن الشخص قد قضى فترة سجن.

حملق الشاب يمناً ويسرة بعينيه مع تحريك يسير برأسه حملاً محترفٍ يعرف ما يصنع، أو كمن تدرب على شيء واعتاد القيام عليه، ولو هلة وبخفة غير معتادة أخذ يتسلق العمود الكهربائي، متشبثاً بيديه في فتوحاته، وواضعا أحد رجليه بها ثم يتبعه الآخر، دافعا

بجسده كله إلى أعلاه، حتى استقر به المقام في وسطه بموازاة نافذة لأحد المنازل في الطابق العلوي.

لم يكن يفصله عنه إلا مترا ونصف متر أو ينقص بقليل، مد رجله اليسرى إلى أسفل النافذة والأخرى لا تزال ترتعش بفتحة العمود الكهربائي، وإحدى يديه متأهبة للحاق برجله لتمسك الحافة العلوية للنافذة. انضوى كل جسمه بالنافذة وقد شكل عليه هيئة حيوان الكانغر وهو مستعد للقفز، تاركا العمود الكهربائي مشمئزا ومتأففا من هذا التصرف الذي يقوم به هذا المجنون.

أخرج من جيب سرواله الضيق شفرة حادة كانت مختفية في جلدتها، وبعملية مألوفة لديه شق زجاج النافذة المهترئ بمحاذاة مقبضها، ثم أخرج من جيبه الآخر سلكا معدنيا، قام بتقويس أحد طرفيه وأدخله من الحيز المشقوق، وبطريقة مدروسة سحب السلك إلى إحدى الجهات لتراجع معه النافذة في استسلام، معلنة فشلها في صد الغرباء عن دخول البيت، وتاركة الغريب يقتحم قدسية غيره.

ابتسم الشاب ابتسامة مكر بعدما تراء له البيت من الداخل يُغريه بالدخول ويحثه على القفز إلى داخله، وقد فتح له ذراعيه كأنه متواطئ معه، وكأنني أبصره يسخر من النافذة التي عجزت عن منع الشاب من الدخول، وما وضعوها في ذلك المكان إلا لهذه المهمة التي ما قدرت على القيام بها وحفظها.

وثب الشاب بخفة ودون أن يصدر أي صوت داخل المنزل، وجد نفسه وسط فناء الدار الذي يتوسط أربعة أبواب، تبين له من أحدها من النظرة الأولى أنه باب حمام، مسح بيده حبات العرق التي تجمعت في جبهته وكان الجو حار بالفعل، تفحص الشاب الفضاء بنظراته المرتابة قبل أن يتحرك بين جدرانه بهدوء وثقة، كان البيت مظلمًا وساكنًا، لا يبرز منه إلا أبوابه الداخلية لُزرققتها، تحرك بعزيمة وقلبه ينبض دون انتظام ليلج أحد هذه الأبواب، أمسك مقبض الباب، وبروية وهدوء فتحه.

أطل إلى داخله فتبين له فراغه من أنفاس نائم، دلف، وبهدوء أغلق وراءه الباب، ضغط على المفتاح الكهربائي ليؤكد له المصباح بضوئه ألا أحد هنا غيرك، حملق بمقلتي رأسه متأملًا كل جوانب الغرفة؛ من سقفها مرورًا بجدرانها إلى أسفلها، كان طلاؤها في حالة يرثى لها، وبلاط أرضها خشن، مع بعض الأثاث التي كشفت رداءتها أن حالة صاحبها لا تسمو حتى تكبر في عين اللصوص ليجسروا على سرقة متاعها، بل هم من يُفترض منهم فعل ذلك مع بيوت الأغنياء. وفي لحظة كمن تذكر شيئًا، انتبه إلى أنه لم تطأ قدماه المكان للإشفاق على أحد، بل للقيام بما دخل من أجله، شرع بسرعة يقلب بصره بين الأغراض عن شيء ما، تبين من طريقة تفتيشه أنه يتحرى ما غلى ثمنه وخف وزنه، بعد دقائق من البحث وقف وقفة كمون وإحباط، أطفأ ضوء الحجرة وخرج منها، وقد تخلى عنها كمن تخلى عن شيء

لا قيمة له، توجه وبنفس الخطوات الصامتة إلى باب آخر، أمسك بمقبض الباب، فتحه بهدوء، أرعى سمعه داخل الحجرة الثانية، تأكد أنها الأخرى لا روح لبشر بها، ومع ضربات قلبه المتسارعة وبشجاعة غبية ضغط الزر الكهربائي ليجد الغرفة كمثيلتها الأولى، خاوية إلا من أفرشتها البالية، وسرير نوم، ومكتب صغير على جنباته كتب متراسة، توسطه حاسوب محمول حديث الصنع، بهي أنيق كأنه يقول للناظر أنه سيد الدار ولا سيد غيره، وأسفل المكتب محفظته المسترخية.

اقترب اللص بخطوات ثابتة نحو المكتب، وقد أطلق لبصره العنان للنظر في أنحاء الغرفة، في تلك اللحظة سمع نباح الكلاب بشدة خارج المنزل، شعر بأصواتهم تخترق قلبه وتقترب نحوه. في أثناء ذلك، ومع إحساسه بارتعاش في أوصاله، وخوفه من دخول شخص ما إلى الغرفة، مع عزمه على الاستلاء على أي شيء دون أن تكون مغامرته هذه إلى هذا المعترك دون غنيمة، حرك رأسه ملتفتا إلى كل اتجاه بسرعة جنونية، مُستقصيا عما يُشبع مبتغاه، فلم يجد سوى ذلك الحاسوب الأنيق أمام ناظريه، انقض عليه بسرعة انقضاض الذئب على فريسته، وما إن تآهب للخروج حتى عاد ويده تمتد لتحمل المحفظة المسترخية ليضع الحاسوب بداخلها. عاد بجسمه إلى الخلف، وفجأة، ودون سابق إنذار أحس بقلبه من غير أن يستأذنه أنه مستعد للوقوف عن النبض، وذلك عندما وجد في واجهته مباشرة ظل رجل.

استمر في صدمته الصامتة برهة من الزمن، قبل أن ينتبه لعقله الذي كان يفكر قبل قليل في المخرج من هذا المأزق يقول له أن هذا الظل ليس ظل شخص غيرك يا أبله، ضرب الحائط بعصبية على سذاجته وغبائه ليطفئ دون قصد ضوء الغرفة عندما لمست يده المفتاح الكهربائي، أسرع الخطى إلى النافذة التي وطئ منها على عكس مجيئه، أطل منها فرأى الكلاب تبتعد بنباحها، أتبعها بوابل من السباب والشتائم بتحريك شفثيه بصوت غير مسموع، ثبتت على كتفه المحفوظة التي تحوي الحاسوب بداخلها، ثم تسلق النافذة وأغلقها وراءه، نازلا على العمود الكهربائي ومتجها نحو زقاق ضيق في ذلك الحي الشعبي ومختفيا في ظلمته.

(2)

طوى سجادته بعد أن صلى للمرة الرابعة ركعتي شكر لربه، اتجه ناحية سريره، ألقى بكل جسمه جهة ظهره عليه، وارتفعت قدماه قبل أن تُقرر عدم السباحة ضد التيار لتستقيم هي الأخرى مع بقية أعضاء جسده، وضع يديه خلف رأسه فاصلا بهما بينه وبين وصادته، ثم ارتحل بذاكرته لتعود به إلى أسعد يوم في حياته، وذلك عندما اتصل به صديقه منذ أربعة أيام، يُخبره أن نتائج مباراة المراكز الجهوية لمهن التربية والتكوين قد تم الإعلان عنها، ويُبشره بأن تمَّ قبوله في الوظيفة العمومية في وزارة التربية الوطنية مدرسا لمادة اللغة العربية، كاد في ذلك اليوم أن يطير فرحا، لم يشعر بنفسه إلا و يخر بها ساجدا على الأرض، شاكرا ربه على هذه المهنة التي انتظرها كثيرا، فبعد أن أخفق - رغم نقطه الجامعية العالية - في نفس المباراة لسنتين ماضيتين، ها هو الآن قد حقّق حلمه، وسيُدخل الحبور على أهله، لاسيما أنه من أسرة فقيرة، ومُفتقر إلى هذه الوظيفة التي يُحبها من كل شغاف قلبه، وليُعين بها والديه، فهما لم يبخلا عليه بالدعاء منذ أن حصل على شهادة الإجازة التي تخوله اجتياز مثل هذه المباريات.

وكأي مُحِبِّ الخير للغير، وكأي شخص لا تُنسيه فرحته أصدقاءه، شكر صديقه على هذه البشارة البهيجة، ووعدته بأنه تنتظره منه وجبة عشاء، ثم سأله بصوت متحفز عن تم قبولهم في هذا المنصب أيضاً، فجاءه جواب سؤاله.

- تم قبولك أنت يا "وائل"، وأنا الآخر، و..حم حم، تم قبول "هدى" كذلك.

ارتسمت على شفتي وائل ابتسامة منيرة عندما سمع اسم هدى. وائل شاب في السابعة والعشرين من عمره، متوسط القامة والجسم، وسيمٌ تُزين وجهه لحية قصيرة جميلة ومهذبة، هو فتى مجتهد ومجد في تخصصه، وله به نقط مشرفة، يتحدث اللغة العربية بطلاقة، يكتب مقالات رأي في كثير من المنابر الصحفية، الالكترونية منها والورقية، يدافع فيها عن معتقداته، وينصر بها المظلومين في بلده، محبوب عند أغلب معارفه، متواضع وهادئ وخلق وامتد ذكاء، يكره الظلم كرها جما، يُدافع عن الحق ويحب الخير للغير، لاسيما إن كان هذا الغير في مثل منزلته، منزلة تُذكره بالمحرومين والبؤساء أمثاله من شباب وطنه، ودائما ما كانت أخلاقه تحببه للناس.

استرسل وائل في وجدانه وذكرياته، وقد تذكر تلك اللحظة التي أسرع فيها إلى والدته ليخبرها البشيرة السارة. فرحت والدته فرحة عارمة، وسعدت معه أشقاؤه، أشقاؤه يصغرونه في السن، لم يحالفهم

الحظ لإتمام دراستهم، لذلك كانوا هم من يكدون ويسعون في الأرض عملا وجدا لتسديد نفقات دراسته في جامعة محمد الأول "بوجدة".

ذهبت به ذاكرته إلى أبعد من ذلك، إلى يوم حصوله على شهادة الإجازة في تخصص اللغة العربية سنة 2013، عندما شارك في مباراة التعليم، لكنه لم يفلح آنذاك، وكذلك لم يكن الحظ واقفا بجانبه في مباراة الماستر لإكمال دراسته العليا، فما كان منه إلا أن صمّم السفر إلى "طنجة" من أجل العمل، لكن ما المهنة التي سيعمل بها؟ لا يهم، ما كان يهم حينها هو سفره، وبعدها سييسر الله كل أمره، هكذا فكر، وبعد شهر كامل من البحث عن العمل هناك لم يهتد إليه، فيئس يأسا شديدا، وحزن على حالته التي لم يبلغ مثلها من قبل، في غمرة حزنه، اتصلوا به من جامعة محمد الأول من أجل استلام شهادة وجائزة لحصوله على المرتبة الأولى بها في تخصصه، ورغم أن الخبر يحتاج منه إلى تهلل وغبطة إلا أنه عقّد حساباته أكثر، إذ لم يتبق في جيبه سوى ثلاثمئة درهم، فكيف يمكنه الذهاب بها من طنجة إلى وجدة ثم العودة، وما الذي سيبقى معه؟ وعلى الرغم من كل هذه الآلام والأزمات أزمع السفر لاستلام شهادته بنفسه، وأثناء عودته وقد حضي بشهادة وحاسوب حديث الصنع، متطور وأنيق كجائزة له على تفوقه، قرر أن يمكث يوما مع أسرته بمدينة الصغيرة "ترجيس" التي سيكون طريقه إلى طنجة مرورا بها، هناك منحه شقيقه مبلغا من

المال ليستعين به على رحلته الشاقة، لهذا فهو لا يستطيع أن ينسى وقوف أشقائه بجانبه، وفي أكثر من موقف.

ما إن وصل التفكير بوائل إلى هذا الحد، إلا ووجد مقتلته يغلبهما النعاس، وجفونه تسقط دون استئذان، فقد أنهكه النصب والإرهاق إنهاكا هذه الأيام الأربعة الأخيرة، فبعد أن وصله خبر نجاحه، أكد عليه صديقه "جمال" أن عملية التسجيل في المركز التربوي وتقديم الشهادات الأصلية والنسخ المصورة منها، ستنطلق ابتداء من اليوم الرابع من الإعلان عن لائحة الناجحين في المباراة، قام وائل في حينه لتصوير نسخا من شهاداته والمصادقة عليها، وبعدها حزم أغراضه وكتبه وبعض مستلزماته، وفي اليوم الموالي كان على موعد توديع أسرته وركوبه الحافلة التي أقلته إلى هنا، إلى وجدة. وقد وجد صديقه جمال في استقباله عندما وصل محطة الحافلات، أخذه معه إلى شقة أسرته، وضع أمتعته بها، وفي صباح اليوم التالي خرج هو وجمال بحثا عن مسكن للكراء، بعد استقصاء مضم واستغلال لهما من سماسرة البيع والشراء الذين لا تأخذهما رافة بمن يسقط بين أيديهم، وجد وائل بيتا مناسبا إلى حد ما ليكون مسكنا له، يتواجد بالطابق العلوي بالقرب من المركز الجهوي الذي سيقضي فيه مع زملائه عاما كاملا في التكوين والتدريب، ليتخرج بعدها أستاذا لمادة اللغة العربية. بعد أن نقل وائل حاجاته إلى مسكنه الجديد، شكر لجمال صنيعه، واعتذر منه على أن أتعبه معه في هذين اليومين، قال وهو يرصّ

ويفصف أفرشته القليلة ويضعها في مكانها مذكرا جمال بوجبة
العشاء:

– أصبحت وجبة العشاء واجبة في حقك يا صديقي، فما عليك إلا أن
تخبرني في أي ليلة تريدها، وفي أي مكان.

جمال صديق وائل منذ سنته الأولى في كلية الآداب والعلوم
الإنسانية، وله نفس تخصصه، وكثيرا ما تشابهت ظروفهما، حصل
على الإجازة في نفس السنة التي حصل عليها وائل، والآن تم قبوله
في المباراة في نفس السنة مع وائل، جمال متوسط القامة، واسع
المنكبين، لون وجهه يقترب إلى السمرة، وأحيانا بطول مكوثه في
غرفته تختفي السمرة ليحل محلها شيء من البياض، شعر رأسه
أسود، ملامحه هادئة يصعب على من يراه أن يقرأ مزاجه من خلالها،
بل وتصرفاته أيضا يكتبها بحروف لا تسعف الناظر إليه فهم مغزاه،
أهي تصرفات شخص سعيد أم تعيس.

رد جمال مبتسما.

– بما أنك مُصِرٌّ، فأقترح أنا الزمن وهو الليلة، واقترح أنت المكان.
أجابه وائل.

– إذن الليلة إن شاء الله في مطعم المدينة، وليس أفضل عندي منه.
وحتى لا تشغلهم وجبة العشاء عما هو أهم قال جمال.

- لكن لا تنس أن غدا أول يوم لانطلاق التسجيل بالمركز وتقديم الشهادات الأصلية والنسخ المصورة منها، لذلك بعد وجبة العشاء ستبيت معي الليلة في شقتي ما دمنا سنسمر في المدينة، وغدا سويا سنتوجه من هناك صوب المركز المهني لتقديمها.

لكن لسوء حظ وائل أنه نسي ليلة أمس أن يأخذ معه شهاداته الأصلية، إذ أنه أخذ النسخ المصورة المصادق عليها فقط، ولما توجه اليوم صباحا من شقة جمال إلى المركز تفاجأ بأنه نسي الشهادات الأصلية، فأخذت منه القائمة على مصلحة استلام الشهادات النسخ المصورة، وطلبت منه جلب الشهادات الأصلية غدا، فبدونها لن يتم قبوله في المركز، وبالتالي إذا لم يأت بها فسيتم حذف اسمه ودعوة أول اسم في لائحة الانتظار في شعبته.

(3)

تجمّلت حديقة "لالة عيشة" بعشبها الأخضر المتراص، وبساتينها الهندسية، في أشكال مربعة ومكعبة ودائرية مما زادها رونقا وجمالا، كانت الأزهار والورود ذات الألوان الحمراء والصفراء على جنبات ممراتها تلفت الأنظار، وقد احتدّ سحر وملاحة الحديقة عندما زارتها خيوط أشعة الشمس الذهبية التي تتخلل فروع أشجارها الباسقة، لم تكن هذه الجمالية هي وحدها التي أدخلت البهجة على الحديقة فقط، بل روادها من الأسر والعائلات الذين يلجؤون إليها بعد صلاة العصر مع أطفالهم، وهم يحملون بالونات مختلفة الألوان أو مثلجات باردة وهم يلعبون، ولم يُنس الأسر استجمامهم في الحديقة من أخذ احتياطاتهم من تقلبات الجو ومناخه، فلا يخفى على أهل وَجْدَةَ وقاطنيها أن مدينتهم مدينة الأربعة فصول في اليوم، فقد يفاجئك فصل الشتاء في أي لحظة من الدهر، ثم ما يلبث أن يتحول دون إذن منك أو إشعار منه إلى فصل آخر غير الذي كان في نصف الساعة الأولى التي مرت، وعلى الرغم من ذلك لا تكاد تجد كراسيها من البلاط والكتل الخرسانية الناعمة المنتشرة في الحديقة فارغة.

- من أين حصلت على هذا الحاسوب الجميل يا "غريب"؟ لا يخفى على علمي أنك تملك من هذه الحواسيب ما يكفي، ولست بحاجة لآخر!

كان هذا استعلاما من صديق "غريب" عندما رآه يُخرج حاسوبا محمولا من محفظته ويقوم بتشغيله في انتظار التقاطه لشبكة "الويفي"، كانا جالسين إلى أحد مقاعد الحديقة ومستندين على مسنده الخلفي، وأطفال الأسر يلعبون ويمرحون حولهما وبالقرب منهما.

غريب شاب في عقده الثالث، معروف عنه الاستهتار والإهمال، بدين الجسم وقصير القامة، له حظ من اسمه تُبرزه بشكل جلي تصرفاته المتناقضة في آن واحد أحيانا، يُهمل شعيرات وجهه لتتبت دون جمالية، يجلس بجواره صديقه "كمال". كمال عكسه تماما في تفاصيل هيئته، فهو نحيف الجسم وطويل القامة، وقد حصل السنة الماضية على الإجازة في القانون العام، وقيم كل واحد منهما مع أسرته في وجدة.

أجابه ضاحكا، دون أين يعلم كمال سبب ضحكك:

- هو كما قلت يا صديقي، عندي منها الكثير، أو على الأصح عندي ما يفوق هذا جمالا وصنعة، لكن صدقتي لو أردت أن أصدقك القول، لا أدري لِمَ اشتريته منه اليوم صباحا، كان يبدو على صاحبه حاجته إلى المال فأراد بيعه، لذا أشفقت عليه واشتريته منه.

- من هذا الذي اشتريته منه؟ هل لم تشك للحظة أنه يبيع ما ليس في ملكه؟ أقصد قد يكون الحاسوب مسروقاً!

تلفظ بها كمال بعصبية، لكن غريب أجابه ببرود.

- قد يكون، وما شأني بذلك، أنا اشتريته بمالي.

- حسناً، أنت الآن تُجهره أمام الناس، وصاحبه ربما الآن يقلب النظر عنه، ولا أستبعد وجوده في هذه الحديقة بالذات.

كان كمال وغريب كل منهما يتحدث في واد غير الواد الذي يقصده الآخر، لذلك أجابه غريب منفعلًا.

- على أي صاحب تتحدث يا كمال، ألم أقل لك أنني اشتريته من صاحبه، لكن هل تعلم؟ لقد عثرت بجوف حقيبته على بعض الشهادات الجامعية لأحدهم، وهو متخصص في نفس تخصصي، ونقطه عالية جدا على ما يبدو لي.

- إذن أدخل الحاسوب إلى محفظته، ودعنا نبتعد من هنا ولا تكن غيبيا.

غريب حاصل على شهادة الإجازة في تخصص اللغة العربية، لا يثق في أحد سوى صديقه كمال، وليس له أصدقاء غيره، رغم أن غريب من أسرة ميسورة ولها وزنها في المجتمع وحتى لدى السلطات، إلا أن الطمع والجشع وأخلاقه الفاسدة التي سودت قلبه،

وتكبره وغروره تجعل الناس تنفر منه وتبتعد عنه، وإن كانت بعض الفتيات يظفن حوله، لا لجماله لكن لماله.

في أثناء سنواته الجامعية كان الكثير من زملائه يشتكون منه عندما يضبطونه متلبسا بغش أثناء إجراء الامتحانات، كان أغلب أساتذته يشتمون منه ومن تصرفاته، رغم المحاباة التي يلقاها من طرف آخرين، وليس ذلك إلا لأن والده ذو شأن في المدينة.

تركا مقعديهما في الحديقة وتوجها ناحية سيارة غريب منطلقين في سباق مع الرياح إلى إحدى الشوارع المؤدية إلى وسط المدينة، في السيارة قال غريب بعدما سأله كمال عما ينوي فعله بالشهادات.

- فكرتُ عندما اصطدمت عيني بهذه الشهادات للوهلة الأولى في أن أسلمها للشرطة، فهم سيعثرون على صاحبها بسهولة، لكن عندما أتدبر المسألة جيدا ويخطر ببالي أنهم سيطالبونني أيضا بإرجاع الحاسوب الذي اشتريته بمالي الخاص لصاحبه أراجع.

- ألم تقل إنك اشتريته من صاحبه؟

قالها كمال بتهكم، فأجابه غريب بانزعاج.

- هل تريد يا كمال مصلحتي أم مصلحة ذلك الأبله الذي حصل على نقط عالية والتي لا أخال إلا أنه حصل عليها غشا وتلبيسا.

بدا على كمال الانزعاج أيضا، فقال لينهي الكلام في هذا الموضوع:

- عندما تقرر ما ستفعله بشأنها، استشر معي لأعطي لك رأيي فيه.

(4)

- يا الله، كيف نمتُ نصفَ نهارٍ وليلةً كاملةً، أيمكن للتعب أن يفعل كل هذا؟

تفوّه بها وائل متتهدا وهو يزيح جسمه عن فراشه، رفع يديه إلى كتفيه ليسمح لكل عضلة في صدره وظهره بالتمدد، فبعد أن حسب يوم أمس أنه سيأخذ غفوة قصيرة فقط بعد صلاته للعصر بسبب الإجهاد والتعب الذي طوّقه، وإذا به يصحو من نومه وقد قارب الليل من انتصافه، حينها قام وتوضأ ليصلي المغرب والعشاء ثم عاد لنومه.

لم يكن وائل قد برمج نوعية النشاط الذي سيبدأ به صباحه هذا حتى أتاه الجواب من معدته بقرقرتها، تُنبهه أنه أهمل إطعامها منذ ما يقارب ثماني عشرة ساعة، وتهدهد بمواصلة القرقررة إذا ركب عناده ولم ينزل لتلبية طلبها، لكنه لم يكن عنيدا لمشاكستها، بل لا مزاج له لذلك، لذلك لم يقل لها "قرقري أو لا تقرقري" كما قالها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في عام الرمادة، لذا تحرك بنشاط ممزوج باستسلام ليجهز فطوره، جهزه وأخذه إلى غرفته ليضعه على المنضدة القريبة من مكتبه، وفجأة وجد فكه السفلي متدل ببلاهة، وعيناه تكادان

تخرجان من محجريهما وقد تجمدتا فوق مكتبه، وقلبه يخفق بقوة، وذلك عندما تنبه إلى أن سطح مكتبه فارغ، لا، بل الكتب فوقه في مكانها، لكن لا أثر لحاسوبه عليه، بل عَوَّض الهواء المساحة التي كان يستحوذ عليها، تطلَّع تحت المكتب ليجد الحقيبة التي ترك بها شهاداته هي الأخرى غير موجودة، وضع فطوره على المنضدة، أخذ يتلمس المكتب تلمس باحث عن شيء غير مرئي، أسرع كالمجنون إلى غرفته الأخرى، حدَّق بها، أحس أن شيئاً ما بها على غير ما يرام، كل شيء في مكانه لكن ليس كما أبقاه تماماً، أهو التوهم فقط الذي يوهمه بهذا أم ماذا؟ نفذ إلى المطبخ فوجد أوانيه القليلة جدا في مكانها.

- أيعقل أن أترك الحاسوب والمحفظة في الحمام!؟

هكذا خاطب نفسه وهو يفكر أمام باب الحمام بدخوله، وحتى لا يبقى معه ذرة شك دخله، فلم يعثر بداخله إلا على ما تركه فيه، رجع إلى حجرة نومه، حاول تذكر أحداث ترتيبه لأغراضه يوم أن أتى بها هو وجمال من شفته إلى هنا، تيقن أن حاسوبه وضعه فوق سطح المكتب، لكن أين هو؟ قال وكأنه يتفاوض مع أحد ما:

- يمكنكم حيازة الحاسوب رغم حاجتي له، لكن أعيديوا لي شهاداتي فقط، هي مستقبلي الذي انتظرته لسنوات، شهاداتي فقط لن تنفعكم في شيء.

أخذ هاتفه، تحرى عن اسم مسجل فيه، ضغط على زر الاتصال، قرّبه من أذنه وهو يترقب الرد من الطرف الآخر، وما هي إلا ثوان حتى جاءه الرد من هذا الطرف بإلقاء التحية بتناقل وملامح كسولة.

اعتذر وائل لجمال عن اتصاله به في هذا الصباح الباكر، فتساءل جمال عن سبب الاتصال، فأجابه وائل.

- أردت أن أسألك عن حقيبتى التي كنت أضع بها حاسوبى، هل نسيتها عندكم في الشقة؟

- هل لم تعد تتذكر يا وائل؟! لقد وضعت الحاسوب على سطح مكتبك في غرفتك عندما...

قاطعته وائل متحسرا فهو يتذكر ذلك جيدا، لكن ما عسى الغريق أن يفعل مع خشبة تطفو فوق سطح البحر إلا أن يتشبث بها، فهو ظن أن معجزة ما وقعت فترك ما فقده عند صديقه جمال، لكن من عبث بأغراضه؟ هكذا كان يتساءل جمال! ثم أردف:

- سأتيك بعد ساعة من الآن لنرى ما في الأمر، انتظرني في بيتك.

(5)

- سيدتي أنا وائل، كنت قد تركت في حوزتك أمس بعض النسخ المصادق عليها من شهاداتي، وقد وعدتك أن آتي اليوم بالشهادات الأصلية، لكن للأسف شخص ما اقتحم مسكني وقام بسرقة حاسوبي ومعه شهاداتي.

- أتذكرك طبعاً، أهلاً بك وائل، لكن ما المطلوب مني بالضبط، وفيم يمكنني مساعدتك؟

- أريد التواصل مع مدير المركز، لأشرح له بنفسي وضعيتي لعله يتفهمها.

- حسناً انتظر بعض الوقت، سأخبره حالاً.

كان هذا الحوار الذي دار بين وائل و"سميرة" في مكتبها، وهي موظفة قائمة على مصلحة استلام الشهادات، سميرة شابة متزوجة، اقتربت من عقدها الرابع، لكن، من يراها يخالها عزباء تجاوزت عقدها الثاني بسنوات فقط، جسمها ممتلئ امتلاء أسراً أخاذاً، لا قبح أو ازدراء فيه، متوسطة الطول، بيضاء البشرة، تلبس فوق رأسها

حجابا وثوبا فضفاضا له لونان، وردي وأبيض، وتضع نظرات على عينيها، أنفها بارز، يتبين من طريقة لباسها أنها تحب أن تبدو أنيقة جذابة.

كان جمال قد وصل إلى بيت وائل بعد أقل من ساعة من اتصال وائل به، أحزنه اختفاء وثائقه كثيرا، وأحس أن صديقه في ورطة حقيقية، لذا حاول التفكير في الحل بدل لعن الظلام، فيما أن المصيبة وقعت، فالمنطق يستدعي التفكير في الحل لا البكاء على الأطلال فوق التلال، وبما أن المركز هو ثاني من يعنيه شهادات وائل بعده، فقد اقترح جمال على وائل التواصل مع مدير المركز ليُعلمانه بما حصل، لعله يرشدهما إلى فكرة لم تجد طريقها إلى رأسيهما.

– تفضلا، تفضلا يا أبنائي.

قالها مدير المركز عندما دلف وائل وصديقه باب قاعة الإدارة، بعدما أذنت لهم الموظفة سميرة بالدخول، وما إن رأها حتى انتصب واقفا لاستقبلهما، كانت قاعة الإدارة مكيّفة ومجهزة بأثاث فخم، استقر وسطها مكتب المدير الخشبي الضخم بطاقمه الجلدي الأنيق، وعلى مقربة منه بجانبه الأيمن صوان معدني للملفات، وقد تغطت أرضها بأثاث أحمر ساحر، دون أن تحس هذه الأثاث بخرج من وطأة أقدام الزائرين لها بأحذيتهم، ورغم أناقة المكان وجماله إلا أن الرجل يظهر عليه الوقار والتواضع.

"الحاج يونس" مدير المركز قارب بلوغ عقده السادس، يلبس جلبابا مغربيا أبيضاً، تزين وجهه لحية متوسطة الحجم اختلط فيها البياض بالسواد، له ملامح تُحسس الناس فضلا عن الموظفين الذين يشتغلون معه بالارتياح من شخصه، فهو الذي لا يزور الغضب وجهه إلا نادراً، بل إنه يستدعيه أحيانا لأمر يستحق ولا يفلح في علاجه إلا الغضب، لكنه يجد هذا الغضب مستعصيا على الانقياد له، فيتركه ليأتي بالحلم محله، أما إذا تعلق الأمر بظلم وقع من أحد الموظفين معه أو من أحد أقاربه أو معارفه على شخص آخر فإن الغضب يأتيه كريح صرصر عاتية، ودون أن يدعوّه.

تقدم وائل وجمال ليجلس كل منهما على كرسي بجانب المكتب، فأرشف المدير قائلاً وهو يجلس خلف مكتبه على مقعده الجلدي:

– مَنْ منكم الأستاذ وائل؟ علمت بضياح شهادتك، كيف حصل ذلك؟ أشار وائل لنفسه بسبابته وهو يحرك رأسه مؤكداً كلام المدير أثناء إلقائه لأسئلته، ثم أجابه على سؤاله الأخير وقد شرع يسرد عليه تفاصيل ما وقع معه منذ أن علم بخبر نجاحه في المباراة إلى لحظته هاته التي يجلس فيها مع مدير المركز، كان الحاج يونس في تلك اللحظات قد أعار أذنيه لوائل، فاستمع وأصغى إليه باهتمام دون أن يقاطعه، وبدى على ملمحه الأسى والأسف مما وقع لوائل، بل أعرب عن ذلك عندما انتهى وائل من كلامه، ثم صمت برهة ثم قائلاً:

- تاريخ المصادقة على النسخ من شهادتك أمامي يؤكد أنك قمت بالمصادقة عليها منذ أيام فقط، مما يعني أن الشهادات الأصلية كانت معك وقتها.

ثم سكت برهة أخرى يتأمل عيني وائل كأنه يستنبأ مدى وقع الكلمات التي سيقولها بعد قليل على وجهه، فأكمل بحسرة.

- لكن ما يجب أن تعلمه أن تسليمك شهادتك الأصلية للمركز في غاية الأهمية، ولا يمكن قبول أي أستاذ متدرب دونها، هذا هو القانون المعمول به وهو يسري على الجميع.

تساءل وائل بحسرة عما يتسنى منه فعله في هذه الحالة، فأجابه الحاج يونس.

- المدة المتبقية لثُمدنا بوثائقك أربعة أيام، وباعتبار حالتك الخاصة بوسعي أن أمدد لك خصيصا هذه المدة لأضيف لك ستة أيام أخرى، أي أمامك الآن عشرة أيام فقط لتضع شهادتك بالمركز، وفي حالة تعذر عليك الأمر، سيتم التشطيب - بكل أسف - على اسمك ودعوة أول من في لائحة الانتظار، هذا ما يمكنني مساعدتك به يا بني.

خرج وائل وصديقه من مكتب مدير المركز وقد خيم الحزن على وجهه، شعر في هذه الأثناء أن مخه وضع أرقاما سرية على الحلول التي يريد مجرد التفكير فيها، ومشفرة بطريقة لا يستطيع فك شفرتها، لذلك وقف هو وجمال وسط ساحة المركز مطرقتين برأسيهما إلى

الأرض، والسكون بينهما سيد الموقف، فأحياناً يكون السكون خير مؤنس، كيف لا يكون كذلك وذهنك الذي هو جزء منك يخونك، ولا يسعفك في هذه اللحظات الحرجة بحلٍ تنقذ به ماء وجهك، لم يستأسد الصمت عليهما طويلاً، فما هي إلا لحظات حتى فر هاربا، وأنداك رفع وائل رأسه ليتحدث مع جمال، وإذا به في تلك الثانية تلتقي عينيه بعيني هدى التي كانت هي الأخرى واقفة مع مجموعة من الفتيات بمحاذاة منهما، ويرفع رأسه ارتفعت دقات قلبه عندما تسمرت عيناه بعينيها لثانيتين قبل أن يزيح كل واحد منهما مقلتيه عن الآخر، التفت جمال خلفه ليجد أن التي كان يُحدق بها وائل هي هدى.

– ماذا كنت تريد أن تقول يا وائل؟

قالها جمال وقد عاد برأسه ليُحدِّث وائل، دون اكتراث للموقف الذي وقع فيه صديقه، فليس الوقت وقت المزاح والدعابة، لذلك أجابه وائل بنفس النبرة.

– لم أضع بحسابني يوماً أنني سأفقد شهاداتي، وأن مجرد هذه الأوراق التافهة قد تُفقد المرء مستقبله، وتأتي بآخر في لائحة الانتظار مكانه، عشرة أيام فقط يا جمال، عشرة أيام غير كافية لاسترجاعها.

لم يكن وائل وجمال قد فطنا وهما يتحدثان، أن كلامهما قد تناهى إلى مسامع الفتيات وسمع كل شيء، لذا صمتن عن الكلام برهة يسترقن السمع لعلهن يسمعن المزيد.

انتبه وائل لاضطراب هدى في وقفتهما، وكأنه فهم من حركاتها أنها تريد منه الصمت أو أنها قلقة بشأنه، تزرع وائل ومعه جمال من مكانيهما نحو مقاعدٍ خشبية كانت في ساحة المركز، جلسا عليها وعاد الصمت إليهما ساخرا من نكس رأسيهما أرضا، وكأنهما تلميذين كسولين ينتظران عقوبة أستاذهما على عمل لم ينجراه.

- السلام عليكم، معذرة على الإزعاج.

التفت وائل وجمال معا إلى مصدر الصوت، فوجدا أن الملقية للتحية لم تكن سوى هدى واقفة فوق رأسيهما برصانة ورزانة بلامحها الهادئة. ارتفع حاجبا وائل ليأْتئها نصف جبهته، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما وفمه فاغر، عاد برأسه للخلف، لم يكن يتوقع أبدا هذا الموقف، كما أنه لا يعلم ماذا بعده.

هدى فتاة في الثانية والعشرين من عمرها، ذكية ومجتهدة، متوسطة القامة والجسم، يزينها حجابها الأسود الذي يوارى رأسها ويتحدر ليغطي ظهرها وصدرها، مع لباسها الطويل والأنيق الذي تحافظ عليه دائما.

كانت بداية تعرف وائل عليها أيام الجامعة، وفي مكتبة الحي الجامعي بالضبط، حيث يقوم الطلبة بمراجعة واستذكار محاضراتهم، فقد تنبه في يوم من الأيام عندما كان أحد الطلبة من إحدى الفصائل المتمركزة في الجامعة يعلو طاولة تتوسط المكتبة الضخمة يريد

الحديث، صفق ثلاث مرات إشارة منه على أنه يريد توضيح أمر مهم، وكان بجواره مجموعة من الطلاب واقفين يشدون من عضده، اشرب كل الجالسين بأعناقهم منتظرين ما سيقوله، ولم يكن آنذاك أي حدث أكثر أهمية من القرار الذي ينتظرون أن تسفر عنه حلقة الطلاب التي كانت خارج المكتبة، كانوا يناقشون فيها أمر تأجيل الامتحانات من عدمه، كان الطلاب وقتها قد انقسموا فريقين، فريق مع مقاطعة الامتحانات النهائية وتأجيلها، وفريق مع اجتيازها في وقتها المقرر. أخذ الطالب في حديثه والكل مترقب ما انتهى إليه قرار الأغلبية خارج المكتبة، وهو محتوم على الجميع الالتزام به رضا أو كرها، وأخيرا أعلن أنهم اتفقوا على تأجيل الامتحانات.

في هذه اللحظة ما كان يشد انتباه وائل بالدرجة الأولى ليس قرار إجماع الطلبة تأجيل الامتحانات، إنما طالبة في إحدى زوايا المكتبة، لم تعبا إطلاقا لما يقوله الطالب وكأن الأمر لا يهمها بتاتا، بل الأعجب من ذلك أن الطلبة بعد سماعهم لهذا الخبر، قاموا من أماكنهم يجمعون كتبهم ومحاضراتهم، فلا فائدة من المذاكرة والمراجعة الآن، لكنها لم تبالي بشيء، أكملت ما كانت تقوم به، شك للحظة أن تكون صماء، لولا أن دنت منها إحدى زميلاتها تحدثها وتجييها، في هذه الهنيهة شعر بشيء ما في قلبه اتجاهها، لم تكن أخلاقه وحتى جرأته تسمح له بالحديث معها، لذا أبقى خلجاته في صدره وملامح وجهها لا تفارقه.

منذ ذلك الحين وهو يختلس النظر إليها، فإذا فطن إلى أنها انتبهت
لنظراته نكس رأسه، حتى تيقنت من أنه يراقبها بنظراته من حين
لآخر، وفي يوم من الأيام جمع شجاعته ورباطة جأشه وصمم الحديث
معها، وما إن اقترب منها وألقى التحية واعتذر على اقتحام قدسيتها
ليأخذ منها بعضاً من وقتها، زاعماً أنه يريد أن يسألها عن شيء حتى
تفاجأ بأنها أذنت له بالسؤال.

- تفضل أخي لا بأس.

هنا أحس بأنه وقع في فخ صنعه لنفسه، فقد تسرع حتى أنه لم يفكر
في السؤال أو الموضوع الذي أراد أن يتفوه به معها.

- الحقيقة، أنا... أريد أن أقول، طيب أريد أن أسألك عن اسمك
وتخصصك.

قالها بشق الأنفس، وطرح أسأله بطريقة بلهاء، فأجابته وهي تحاول
الأ تلتقي عينيها بعينيها.

- اسمي هدى، هذه سنتي الأولى في الجامعة، تخصصي الرياضيات،
وأنت؟

- وائل، اسمي وائل، أنا في السنة الثالثة هذا العام، تخصصي اللغة
العربية، والحقيقة أنني رأيتك أول مرة ذلك المساء الذي أعلن فيه
الطالب قرار تأجيل الامتحانات، وقد انبهرت بجديتك وعدم مبالاةك
بما يقول، حتى أنني شككت أنك تعيشين معنا في هذا العالم.

احمر خذاها خجلا وأطرقت برأسها ولم تجب، فلم يكن بينهما بعد ذلك اللقاء إلا إلقاء التحية على بعضهما البعض عند التقائهما.

لم يكن وائل قد استفاق من شروده بعد، عندما نغزه جمال في فخذة وهو مُحرج ينتظر منه أن يرد عليها التحية، حتى كادت الفتاة أن تتحرج من موقفها ذلك، ولربما قد ندمت في تلك الثواني على جسارتها وأن وَضَعَتْ نفسها في هذا المأزق، ولم يثنها عن إحساسها بالحرَج إلا وهي تسمع وائل يرد عليها التحية بصوت خافت.

– أعتذر منكما لدي ما سأقوم به الآن، في أمان الله.

اعتذر جمال بكل لباقة وترك وائل وحده في حيرة من أمره، تركه يتفحص وجه هدى ويترقب منها أن تُفصح عما جاء بها، فكر فيما يُمكنه أن يقوله حتى لا يزيد من إحراجها، وكاد أن يطلب منها أن تجلس مكان جمال، لولا أن انتبه عقله إلا أن اقتربها منه أكثر من تلك المسافة لا يجوز، على الأقل في أعراف الملتزمين من الطلبة، وقد أحس عندما فكر في هذه الخاطرة بقطرة عرق تنزل على عموده الفقري سالكة طريقها إلى أسفل رجله.

حينها انتصب واقفا وسألها بثقة في نفسه عن حالها، وكأنه يتوسل من هذه الثقة أن تتجنب خيانتها في موقفه الذي يفقه الآن معها، فأجابته.

- بخير والله الحمد، أعتذر مرة أخرى عن الإزعاج، لقد سمعت ما دار بينك وبين صديقك عن فقدانك لشهادتك، وقد أحزنني الأمر كثيرا، وأحببت مساعدتك إذا رغبت في ذلك.

تلفظت بذلك وهي مطرقة برأسها أرضا، والخرج باد على وجهها، شكرها وائل على رغبتها في مساعدته، ثم أخذ يُعرّفها بكل ما وقع معه، وقد وجدها فرصة ليُطيل الحديث بعض الوقت معها، عندما انتهى من كلامه لم تتمكن هدى من التعبير عن أسفها مما وقع له، فتركت ملامحها تنوب عن كلماتها لتبدي مدى أسفها وحزنها مما سمعته، وما هي إلا لحظات حتى أفرجت عن كلماتها لتخرج من سجن فمها باقتراح لم يخطر له على بال بعد.

- أقترح عليك أن تطلب من كلية الآداب والعلوم الإنسانية أن تستخرج لك شهادات جديدة، والكلية التي درست بها بفضل الله موجودة بهذه المدينة.

أعجب وائل بهذا الاقتراح كثيرا، وعبر لها عن ذلك، لكن تساءل ما إن كان بإمكانهم استخراج شهادات جديدة في وقت ضيق كهذا، فجاء جوابها بأن يتصرف ويأخذ بالأسباب، وسييسر الله أمره، قالت ذلك وانصرفت مباشرة، فتناهى إلى سمعها صوت وائل يشكرها على صنيعها هذا.

(6)

أدركت وائل صلاة العشاء حينما خرج للتجول في أنحاء المدينة، فقد أحس بأن الجدران الأربعة لغرفته كقبر يضيق على أضلاعه، صلى صلاته في أحد المساجد، فأينما أدركتك الصلاة في وجدة فصلي، أوليست توصف "بمدينة المساجد" لكثرة المساجد المتواجدة بها.

وجد وائل ذهنه وهو في الطريق إلى منزله يُفكر في الموقف الذي حصل معه اليوم مع تلك الفتاة، إنها تهتم به وقلقة بشأنه، أيعقل أن مجرد ذلك التواصل للحظات في الجامعة منذ سنوات جعلها تميل إليه كما يُحس بقلبه هو أنه يميل إليها، حرك رأسه بقوة كأنه يزيح هذه الفكرة من رأسه، ثم عاد إلى تفكيره وكأنه يتحرى عن مخرج لشعوره فتفوّه هامسا:

– أليس الله سبحانه هو الذي خلق الحب في قلب الإنسان، وجعل كل جنس من البشر يميل إلى الآخر؟ أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من أخبر بأنه لم يجد للمتحابين مثل الزواج؟

ثم عاد مرة أخرى ليقرّع نفسه ويحادثها:

- الزواج! الزواج يا وائل، لكن هل أنت متأكد من أنها ستقبل بك زوجا؟

- يا وائل أترك عنك هذه الأفكار الآن، وخذ بالاقتراح الذي اقترحتة عليك الفتاة بشأن وثائقك.

أحسّ وائل بأن هناك عراقا مستميتا بين عقول كثيرة في رأسه، وأنها تتصارع فيه، وكل منها يحاول الانتصار برأيه على الآخر. وفجأة وكأنه استفاق من حلم مزعج أبصر سيارة تمر في الشارع الرئيسي بسرعة جنونية، وليست هذه هي المصيبة، إنما الطامة الكبرى أن طفلا، يبدو أنه في العاشرة من عمره باشر اجتياز الشارع للمرور إلى الجانب الآخر. تصمر وائل لثانية في مكانه، وعيناه تكادان تُقتلعان من محجريهما، يصوبهما تارة نحو السيارة القادمة بسرعة مفرطة، وتارة يراقب تحرك الطفل الذي يعبر ناحية الجهة الأخرى، كأنه ينتظر من المخ أن يُعطي له إشارة التصرف، وفي لحظة، اندفع وائل بسرعة هائلة نحو الطفل ليحاول إنقاذه في الوقت المناسب، في تلك الوهلة التفت الطفل النفاثة خاطفة ناحية سائق السيارة بلا مبالاة، وكان ذلك موازاة مع مرور السيارة بسرعة وهي تصم الأذان بصوت منبهها الذي طال لمدة طويلة وكان السيارة دون فرامل لتقلل من سرعتها، أو تقف.

دفع وائل الطفل عن الطريق بقوة في الوقت شبه مناسب، في هذه اللحظة لم يكن وائل يلحق السيارة بعينيه التي مرت بمحاذاة منه، وقد لمست ثيابه وكادت تُرديه أرضاً، إنما كانت مُقلتيه تُتبعان الطفل الذي شعر وائل بخفة وزنه كالريشة عندما قام بدفعه وإخراجه عن الطريق، ولم يسقط الطفل أرضاً بقوة الدفعة، بل تدحرج ككرة على الأرض، ثم قام كأن شيئاً لم يكن، دون أن يقع له أي كسر أو مكروه، ودون أن يلتفت إلى وائل، ودون حتى أن يشكره على إنقاذه لحياته، استمرت عينا وائل مشدوهة نحو الطفل وهو فاغر فاه، حتى اختفى في زقاق من الأزقة.

(7)

اليوم الأول من المهلة التي أعطاها مدير المركز لوائل

استفاق ضمير غريب اليوم فوجد نفسه منطلقا صوب مقر الشرطة للتبليغ عن تلك الشهادات، كان يخمن فيما يُمكنه أن يقوله لهم، فقصه شرائه للحاسوب وعوده على شهادات بداخل الحقيبة لا يُمكن أن يذكرها أبدا، لذلك سيختلق قصة من عنده، وقد استقر تفكيره على نوع القصة التي سيخبرهم بها وهي أن الوثائق عثر عليها على إحدى المقاعد بالحديقة وأتى بها إلى هنا.

وقف قبالة المبنى الشاهق للأمن الوطني، وجعل مقلتيه تتأمل منظره من أعلاه إلى أسفله، في لحظة ترقبٍ حدثته نفسه بأن يُخبرهم بالحقيقة، لكنه تراجع عنها في التو، عدل من ثوبه، ولج الباب متجاوزا الحائط المحيط بالمبنى، صعد بعض الأدراج ليجد نفسه أمام الباب الرئيسي للمبنى، دفع الباب بهدوء ليلقى أمامه الشرطي الحارس منتصبا، فباغته الشرطي سائلا:

— ما حاجتك؟

أربكه سؤاله، فلم يكن قد حضر الإجابة ليتلفظ بها أمام الباب، أليس بوسع هؤلاء أن يمهلوه حتى يدخل، فمن سوء الضيافة أن تسأل الضيف عن حاجته دون أن تدعوه للدخول، لذلك تتعنع قائلاً:

- عثرت على بعض الوثائق فأردت تسليمها لكم؟

حينها فقط دعاه الشرطي للدخول، وليس الدخول فقط، بل الجلوس والانتظار، فقد غريب بترقب ينتظر دوره ويتفحص وجوه الناس أمامه، سمع رنين هاتفه فاستأذن الشرطي للخروج للرد على المتصل، ولم يكن غريب يعلم أن هذا الاتصال سيغير كل ما كان ينوي صنعه، بل قد يُغير مستقبله بالكلية.

- ما بك تتصل بي في هذا الوقت يا كمال، يا لك من متطفل، أجداك دائماً تتصل في أوقات غير مناسبة تماماً.

قالها غريب بانزعاج تام، فسأله كمال عبر الهاتف مندهشاً:

- لماذا؟ أين أنت الآن؟

- أنا في مخفر الشرطة.

- ما الذي فعله هناك يا أبله؟ هل اقترفت جرماً؟

تفوه بها كمال بعصبية، فأجابه غريب بعصبية مماثلة.

- اخفض من صوتك لقد صممت أذني، أنا هنا من أجل تسليم الشهادات التي عثرت عليها.

- ماذا؟ ألم ننفق على أن نخبرني بالقرار الذي تنوي اتخاذه حتى نتشاور فيه، اسمع، اسمعني جيدا، إياك أن تسلم تلك الشهادات، أمر مهم أريد أن أخبرك به، ستندم طيلة حياتك إذا سلمت تلك الشهادات يا غريب، صدقني.

ترددت الكلمات في أذني غريب، "أمر مهم"، "ستندم طيلة حياتك"، أيعقل أن المرء في حالة صفاء نفسي، وهو على صراط صائب تأتيه مثل هذه الأخبار؟ كيف يمكن أن يتعارض فعل الخير بتسليم الشهادات لصاحبها بالندم طيلة الحياة، أوليس نتيجة فعل المعروف الارتياح النفسي، وفعل الشر لا نتيجة حتمية له سوى الندم والخيبة؟ فكيف استطاع كمال أن يدمج فعل المعروف والندم في معادلة واحدة؟ كيف استطاع أن يجعلهم في كفة واحدة؟ كان حقا ضمير غريب مستيقظا في تلك اللحظات، لكن فضوله لمعرفة خبايا كلام كمال كان له رأي آخر.

- ماذا تخفي عني يا كمال، أفصح ماذا هناك؟ لا تتركني قلقا هكذا.

- اسمع، سأتي إليك غدا على الساعة العاشرة صباحا وسأخبرك بكل شيء، وددت أن نلتقي اليوم لكن بعض المشاغل منعتني من ذلك، لا تنس ما قلته لك بالحرف، هيا إلى الملتقى.

قطع الاتصال وترك غريب يسبح في أفكاره وهو اجسه، لا يدري ما يخفيه عنه كمال، لم يعتد منه الحديث بهذه الطريقة، لابد وأن في

الأمر أهمية ما، ولمَ سيندم إذا سلم الشهادات للشرطة؟ ما الذي يجري؟
حسنًا سيعرف كل شيء غدا صباحًا، ما يتوجب صنعه الآن هو
الابتعاد من هذا المكان حتى لا يُكشف أمره، فما عليه إلا الصبر وغدا
سيعلم كل شيء.

(8)

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل إلا نصف ساعة، وائل لا يزال مستيقظا، يجلس على مقعده وقد وضع يديه على مكتبه بشكل دائري وتوسطهما رأسه الذي أطرق به على مكتبه، سرح ذهنه يجتر ما قاله له مدير المركز الحاج يونس، "أمامك الآن عشرة أيام فقط لتضع شهادتك بالمركز، وفي حالة تعذر عليك الأمر، سيتم التشطيب - بكل أسف - على اسمك ودعوة أول من في لائحة الانتظار، هذا ما يمكنني مساعدتك به يا بني".

"كيف يمكنني الحصول على شهاداتي بعدما سُرقت مني؟" هكذا كان يُفكر، من أين سيحصل عليها الآن بعدما فقدها؟ وكيف له من استعادتها في مدة قصيرة جدا؟ فالיום هو اليوم الأول من المهلة التي أعطاه له مدير المركز، وقد أدبر وانقضى، ولم يغتنم منه حتى مجرد ذهابه إلى الكلية ليتمس منهم استخراج شهادات جديدة، فالיום كان في وضعية صحية صعبة بسبب صداع رأس ألمّ به فلم يستطع حتى الخروج من منزله. إذن لم يتبق له من المهلة سوى تسعة أيام، فمن أين سيستعيد وثائقه؟ هل حُكم عليه أن يعيش حياة بنيسة؟ نعم يؤمن

بقضاء الله وقدره وهو راض به، لكن قلبه لا يتحمل هذه العقبات التي يصطدم بها في كل مرحلة من مراحل حياته، أسرته الفقيرة، معاناته المادية في الجامعة، حصوله على الإجازة وعدم توفقه في بعض المباريات، والآن بعدما تخطى كل العقبات وأدركت أسرته ومعارفه أنه أصبح أستاذاً، إذا بحلمه يتبخر في الهواء، كيف يمكنه أن يقابل أمه وأسرته بهذا النبأ المحزن، هل يمتلك الجرأة ليقول لها يا أمي ضاع مستقبلي، لقد فقدت وثنائي ولا يُمكنهم قبولي في هذه الوظيفة بدونها.

ما إن وصل إلى هذا الحد من التفكير حتى أحس بعبارات ساخنة تنزل من وجنتيه على خديه، فلم يشأ أن يقطع عليها طريقها، بل أفسح لأخريات التزلج على وجهه بمرح دون أن تأبه لحزن الرجل ومزاجه السيء.

في تلك الهنيهة وهو لا يزال على حالته تلك سمع هسيساً وخطوات أقدام في بيته، رفع رأسه بسرعة عن المكتب، تصمر لثوان في مكانه وهو على هيئته، أرعى سمعه لتلتقط أذناه الجلبة التي أحدثتها تلك الخطوات مرة أخرى، لكنه لم يسمع شيئاً، فحسب ذلك توهما من عقله فقط، لكن بعدها بدقة واحدة عادت الخطوات تخطو بكل حرية في منزله مفتحة حرمة، في هذه اللحظة تيقن أن شخصاً ما بفناء المنزل، ظهر الانبهار والارتياح جلياً على وجهه، ارتعشت أوصاله

وشخصت عيناه وتجمدت حركته، ثم خمن أن يكون اللص الذي سرق حاسوبه قد عاد ليأخذ شيئاً آخر، فقال بنبرة مرتعشة:

- من هناك؟ ماذا تفعل هنا؟ أرجوك اخرج من منزلي فليس هنا ما يمكنك أخذه.

في هذه البرهة من الزمن صممت الخطوات كأن صاحبها استجاب للنداء، استجمع وائل قوته وشجاعته، صمّم على المواجهة ليرى من هناك خارج الغرفة، بخطوات بطيئة هادئة جعل يقدم رجلا ويتبعها الأخرى بصعوبة، وجسمه كله يهتز كشجرة يحركها الريح، وما إن وصل الباب حتى مد يده المرتعشة إلى المقبض ببطء وحذر مبالغ فيه، أمسك به، أداره، ثم جذب الباب بخفة، وإذا بالمفاجأة.

لقي أمامه مباشرة مخلوقا لا يشبه الإنس في شيء، مخلوق ليس في حجم جسم الإنسان، ويختلف عنه تماما، ويمكن لعينيك أن تخترق جسده الشفاف لترى ما وراءه، كما أن وراء ظهره جناحين عن يمين وشمال، برز من رأسه قرنين كقرني الجدي، وأذنين طويلتين، وأنف ممتد بشكل واضح، وفمه كبير يشي بابتسامة عريضة مخيفة تملأ وجهه كله، وفي يده باقة ورود.

ما إن حدّق وائل في هذا المخلوق المائل أمامه حتى صرخ صرخة هائلة قد تهتز لها الجبال، رقص قلبه بقوة داخل قفصه الصدري كطائر يريد حرّيته، وجسمه يرتعد بشدة، ترنحت قدماه حتى كاد أن

يسقط، غامت الدنيا في عينيه، أراد أن يصرخ مرة أخرى لكن صوته خذله، فلم يخرج من فمه إلا عواء غير مسموع، وإذا بمراكز وعيه في مخه لم تعد قادرة على إبقائه يقظاً أطول من هذا الوقت، ففقد الوعي وسبح في غيبوبة لا يعلم أحد هل سيستيقظ بعدها أم أنها غيبوبة أبدية، في أثناء غيابه عن عالمه والدنيا تظلم أمام عينيه سمع صفة قوية تلطم وجه أحدهم، لكنها ليست على وجهه.

(9)

- لماذا صفعتني يا أبي؟

قالها بنبرة اختلط فيها الصوت بالبكاء وهو يحك بيده خده المصفوع، فجاهه الجواب على سؤاله الذي يعلم الجواب عنه مسبقاً.

- ألم أقل لك مرارا وتكرارا أن تبتعد عن عالم الإنس، ألم تستوعب بعد يا بني أن عالمنا نحن أهل الجن منفصل تماما عن عالم الإنس؟

- لكن يا أبي زيارتي لعالم الإنس ليست لشرٍ اشتيهتُ اقترافه، بل رغبْتُ فقط أن أرد بعض الجميل لشاب أنقذ حياتي من موت محقق.

- أنقذ حياتك!! كيف ذلك يا "هوميروش"؟ ما الذي تقوله؟ ما هذا الهراء؟

تلفظ بها والد الطفل الجني باندهاش وعصبية، فتردد هوميروش للحظات قبل أن يحسم أمره ويقص عليه الأحداث التي جرت معه يوم أن أنقذه وائل من حادثة سير محققة، فكان ذلك الاعتراف كاف ليشتعل الغضب في رأس الأب الجني وعينييه، فخاطب ابنه قائلاً:

– إذا تعترف أنك اقتحمت عالم البشر قبل هذه المرة الأخيرة، وتصبر على مخالفة أوامري وعصيانها؟

كان والد الطفل الجني في هذه اللحظات يمسك أذن ابنه الطويلة بغضب، وقد زاده الغضب بشاعة وقبحا مضاعفا، فهو يشبه ابنه في تفاصيل جسمه إلا أنه نسخة مكبرة عنه.

ارتعش الطفل الجني وعلامات البكاء أخذت تجلو على وجهه المخيف، قبل أن ينطفئ غضب الأب تدريجيا ويرق قلبه على ولده، وأنداك أخلى سبيل أذنه وأردف يخاطبه بعطف قائلاً:

– اسمع مني يا ولدي، سأقص عليك قصة لها مغزى ولتأخذ العبرة منها، وقعت أحداث هذه القصة بين جدي "سارسان" الذي توفي منذ خمسين سنة وكان عمره قد قارب ألفي سنة عندما مات.

كان مع ستة من أصحابه، القصة بدأت حينما خرج رجل يُدعى محمد إلى قوم بمكان اسمه الطائف، هبّ ليدعوهم إلى دينه الجديد، لكن أولئك القوم لم يتبعوا دينه وسخروا منه، فخرج منهم حتى أتى موضعاً قريباً من مساكن أجدادنا الجن، وقام من الليل يصلي ويقرأ القرآن، فمر به سبعة نفر من أهلنا الجن ومنهم جدي سارسان الذي قال لهم عندما سمعوا ذلك الرجل يتلوا آيات من القرآن: "استمعوا إلى هذا الكلام الجميل الذي يقرأه هذا الرجل!"، فمكثوا يستمعون، فعلموا آنذاك أن ذلك الرجل هو محمد رسول الله، وذلك الكلام هو آيات من

القرآن الكريم، وأن الدين الذي يدعو إليه هو دين الإسلام، فأسلموا وذهبوا إلى أقوامهم يدعونهم إلى هذا الدين الجديد، دين الإسلام، وهكذا دخل الكثير من الجن في الإسلام، وقد أنزل الله سبحانه سورة باسمنا، سورة الجن، بل حكى للبشر والجن فيها ذلك الحدث حيث قال: "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ^ط وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2)"، وكان أجدادك السبعة يقولون حينئذ لمن يلتقون به من الجن: "وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ^ط فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13)"، فأمنوا بما أنزله الله سبحانه.

والعبرة من هذه القصة يا بني، أن أجدادك من الجن عندما سمعوا ذلك القرآن وانبهروا به وراوا طيبة وأخلاق ذلك الرجل الطيب الذي هو رسول الله، العبرة أنهم رغم ذلك احترموا سنن الخلق وقوانين الجن، فلم يذهبوا إلى ذلك الرجل لمعانقته أو مصافحته، أو الحديث معه، أو أن يعلنوا له أنهم قد دخلوا في الإسلام، فلم يجسر أحد منهم أن يتكلم مع النبي، لماذا يا بني؟ لأنهم يعلمون أن عالم الجن يجب أن يكون منفصلا عن عالم الإنس، فلا يجب أن يظهر أمامهم، أو يتحدثوا معهم، أو يفزعونهم، أو حتى يساعدهم في أمور تخصهم كما أردت فعل ذلك أنت، وإلا فأين الحكمة من خلق الله للجن بمواهب دون أن يعطيها للإنس؟ فلو أراد ما تريد أن تتفضل به عليهم لأعطاه لهم، لذلك تكلف الله سبحانه بنفسه ليخبر الجن والإنس بالقصة دون

أن يخوض أحدهم في عالم الآخر، إذن الفائدة باختصار هي أن تقتدي بأجدادك وتبتعد عن عالم الإنس.

ابتسم "هوميروش" من فكرة لاحت واشتعلت في رأسه فقال:

- لكن يا أبي ألم تخبرني من قبل عن قصة نبي الله سليمان والجن الذين كانوا يخدمونه، ومنهم جدك السابع "قرقوش"، فكيف يخدمونه إذا لم يعيشوا في عالمه؟

برز الارتباك على الأب الجني قبل أن يقول بحذر:

- يا بني تلك حالة خاصة جدا، والأمر يتعلق بمعجزات نبي الله سليمان.

- وماذا عن الجني الذي أخبرتني عن قصته مع الصحابي أبي هريرة عندما كان يطلب منه طعام الزكاة، ثم بعدها علمه آية الكرسي.

بدا الانزعاج جليا على الأب من مجادلة ابنه، فقال موضحا:

- بني ذلك الجني ليس سوى شيطان، وكما أنه ليس بمسلم، ألم تسمع قول ربنا يذكر كلام أجدادنا في كتابه وهم يقولون "وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ^ط كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11)" ويقولون أيضا: "وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ^ط فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15)"، فالمسلم يتميز بأخلاق الإسلام،

أما غير المسلم فله أن يصنع ما أراد مادام قلبه خال من الإيمان الذي يمكن أن يدفعه لفعل الخير.

صمت برهة ليرى وقع كلامه على ابنه، فلما لم يجد منه اعتراضاً قال منها الموضوع:

- والآن يا "هوميروش" اترك عنك هذا الجدل واستعد للصلاة، فوقتها سيحين بعد حين.

(10)

اليوم الثاني من المهلة

على مقربة من فيلا كبيرة واسعة ذات ثلاثة طوابق، وأسفل الطوابق الثلاثة مرأب للسيارات، وتحيط بالفيلا حديقة يحيط بها هي الأخرى صور متوسط الطول له باب حديدي، كان كمال يتقدم نحوها ليضغط زر الاتصال على الهاتف المنزلي، وما هي إلا بضع دقائق حتى وجد أمامه الخادمة التي تبين من خلال ملامح وجهها وحديثها معه أنها تعرفه ويعرفها، كانت ترتدي ملابس محتشمة وطويلة، وردية اللون، يظهر من شكلها ولونها المتناسق أنها ملابس الخدم في الفيلات الفخمة، قصيرة الطول بعض الشيء، مكتنزة الجسم، تجاوزت العقد الثالث من عمرها بخمس سنوات، تبرز بشكل غير واضح هالات سوداء أسفل عينيها، وبعض الشحوب بلامح وجهها، ومع ذلك فلم تتخل مع مرور السنوات الصعبة من حياتها عن نصيبها من الجمال واللطافة وحتى الرشاقة والرقّة والحيوية.

- أهلا "فوزية" كيف حالك؟

ردت عليه التحية ورحبت به بابتسامة عذبة صادقة، وقبل أن يفصح عما أتى من أجله، أشارت له برأسها أن يتبعها ليصعد خلفها درجات السلم إلى الطابق الثاني لتأخذه حيث تتواجد غرفة غريب. طرق كمال باب الحجرة بيده، ليسمع بعدها صوت غريب المتراخي يأذن له بالدخول، وما إن دخل حتى قال:

- ظننت أن أجذك نائماً، فعادة ما تسهر كثيراً وتستيقظ متأخراً.

رد عليه غريب بفتور:

- ها أنت كما ترى، لم استيقظ إلا اللحظة عندما أخبرتني فوزية أنك أتيت، فقد أعلمتها من قبل أن توقظني عندما تأتي، رغم أنني لم أتم جيداً ليلتي هذه لأنني كنت أفكر في كلامك الذي حدثتني به يوم أمس.

كان كما قال غريب كل شيء يدل على أنه استيقظ حديثاً، فغطاؤه لم يحميه ببطية بعد، وملاءة فراشه مالت على جانب السرير، وبعض ملابسه مبعثرة بجانبه، ورغم ذلك فلم يكن يخفى على أحد أن هذه الحجرة مجهزة بكل ما يحتاجه ابن رجل ميسور، مكتب جلدي ضخيم في جانب من جوانب الحجرة، أمامه كرسي جلدي أنيق، وخزانة ذات أربعة أبواب لملابسه المتنوعة والأنيقة، على جدران الحجرة المطلية بطلاء جميل ومعاصر صور عديدة ومنها صورة معلقة بشكل منتظم.

- حسناً أخبرني الآن بكل شيء وبالتفاصيل المملة.

قالها غريب وهو يسوي رجليه ليجلس عليهما وسط سريره، ف جذب
كمال كرسيه كان في الغرفة واقترب به ليقعد عليه بمحاذاة سرير
غريب، وبحركة كأن الأمر ذو أهمية بالغة، مال بجذعه نحو غريب
يسأله عن اسم صاحب الشهادات التي معه، فأجابه غريب بلا مبالاة.

- اسمه وائل، وائل أبو الفضل!!

لمعت في وجه كمال وعينيه ابتسامة مأكرة، فتمتم: "إذن كما
توقعت"، سمعها غريب فقال له وهو يضيق من عينيه:

- ماذا توقعت؟

- الشهادات التي معك هي لأستاذ، أقصد سيصبح أستاذا متدربا في
المركز الجهوي هذه السنة بعد نجاحه في مباراة لمهنة التدريس،
وبضياح شهاداته ستذهب من بين يديه هذه الوظيفة.

أجاب غريب كمال باستهزاء مبالغ فيه، وهو يضغط على كل كلمة
ينطقها كأقبيات استصعبت عليه مضغها.

- ثم جلست تفكر، فقفزت إلى عقلك فكرة مساومته على تلك الوريقات
التافهة من أجل بعض الدريهمات، أليس كذلك يا عبقرى.

نظر كمال إلى غريب مليا برأس مائل كأنه يتفحص مدى انحطاط
درجة نكائه من خلال رأسه الدائري الضخم، ثم قال دون أن يزيح
عينيه عن عينيه.

- يا لك من أبله، ألم تفهم بعد؟ ألم تقل إن تخصصك هو نفس تخصصه، وأنت أول من يتواجد في لائحة الانتظار عندما أعلنوا عن نتائج المباراة؟

- هو كما قلت، فماذا في الأمر؟

توسعت عينا كمال من غباء غريب، فصرخ في وجه.

- غريب!، لماذا أنت غريب هكذا، ما أود أن أفهمك إياه، أن المدعو وائل بعدما ضلت منه شهاداته سيتم التشطيب على اسمه من منصبه، وسيأخذ مكانه أول المتواجدين بلائحة الانتظار، الذي هو أنت، ألسنت أنت الذي حاولت مرارا وبطرق غير مشروعة الحصول على مثل هذا المنصب.

فتح غريب ثغره بابتسامة بلهاء وفكه السفلي متدل، لينقض في تلك اللحظة على كمال من سريره ويرديه هو ومقعده أرضا وهو يعانقه، وكمال يتأوه من الألم جراء ارتطام ظهره بالمسند الخلفي للمقعد.

سأل غريب كمال وهو ينهض عنه ويمد له يده ليقف على رجليه، عن الذي أخبره بهذا الخبر، فانتصب كمال واقفا وهو يتحسس الموضع الذي يؤلمه من جسده، ويستعد ليفصح لغريب عن مصادره.

- أتذكر الفتاة التي حدثتك عنها عندما وجدتنى واقفا بجانبها، وقد أخبرتك أنها هي الأخرى تم قبولها بالمركز الجهوي، لقد كانت في ذلك المركز منذ يومين هي ومجموعة من صويحباتها، وسمعت من

المسمى وائل وهو يتحدث مع صديقه عن الشهادات التي فقدتها، وأن مدير المركز أعطاه مهلة عشرة أيام للتسجيل بها في المركز، وعندما قابلتها أمس صباحاً أخبرتني بالأمر على سبيل السخرية منه عندما لم نجد أي موضوع نتحدث فيه، ولما سألتها عن اسمه تذكرت أن صديقه يناديه بوائل، وهكذا استنتجت أن يكون هو صاحب الشهادات.

– إذن إذا لم يهتدي إلى شهادته في هذه المدة فإن المركز سيتصل بي لأخذ مكانه.

تلفظ بها غريب وهو في أشد ساعاته فرحاً، وكيف لا وقد بدا له الخيط الذي سيربط به أفواه أسرته التي تنعته بالفاشل والغبي، وأنداك أخذ في لهفة يسأل كمال عما يمكنه فعله اتجاه تلك الشهادات، فكان جواب كمال حاسماً، وهو التخلص منها في أقرب وقت، وليس بأي طريقة كانت، إنما عن طريق حرقها حتى لا يبقى لها أثر، ولو استطاع لاقتراح عليه أن يأخذ رمادها وينثره في ساحل البحر الأبيض المتوسط، هذا فقط إذا أراد أن يضمن منصبه، ولو قالها لوافق غريب على ذلك في الحال كما وافقه على إحراقها في الحال، بل وعده بهدية ثمينة لن تخطر لكمال على بال، يمنحها له بعد أن يتصل المركز به ليأخذ مكان الذي سيحرق وثائقه، وما أن ذكر الهدية حتى بادره كمال قائلاً وكان الهدية ذكّرتة بما كان ناسياً له:

- بمناسبة هذه الهدية الكبيرة، اصدقني القول، ما لا أستطيع فهمه إلى حد الآن، أنك من أسرة ميسورة جداً، ولك من المال والسيارات والملابس ما يُغنيك عن التمسك بمجرد وظيفة لا قيمة لها بالنسبة لك، لما هذا التمسك بها يا غريب، حتى أنك أعطيت مالا كثيراً من أجل أن تُقبل في تلك المهنة، لكن كما ترى رغم ذلك أنت قابع في لائحة الانتظار.

لم تكن المسألة مسألة مال بالنسبة لغريب، لذلك قطع عنه استغرابه بأن بيّن له أن الأمر لو كان متعلقاً بالمال ما فكر في هذه المهنة، لكن ما يحز في نفسه هو أن كل أهله يصفونه بالغبي والفاشل، فأراد أن يبرهن لهم أن باستطاعته الحصول على وظيفة أو مصدر رزق دون الاتكال على أحد منهم، وهذه فرصته ليثبت لهم عكس ما يظنون به. لكن كان كمال وهو يستمع إلى غريب يحرك رأسه متفهماً ومتشككاً في نفس الوقت، فيبدو أن كل ما قاله غريب عن مبرراته وكل تصرفاته الغريبة لم تقنع كمال، لذلك أخذ هاتفه محاولاً أن ينشغل بشيء ما عن كلام غريب الذي يبدو أنه أزعجه، ولم يكن أفضل شيء يُصمّت به هراء غريب من أن عرّفه على حساب وائل الفايسبوكي وصورته المتواجدة به، فأخذ غريب منه الهاتف، وحدث في صورة وائل. ووائل لم يكن في تلك الساعة إلا نائماً بعد الحادثة الغريبة التي أفقدته وعيه يوم أمس.

(11)

كان لا يزال نائما وقد تخطت الساعة العاشرة صباحا، وإن كان استيقاظه باكرا هو عادته، تحول بجسده وهو على سريره إلى الجهة اليسرى، فتح عينيه بتثاقل، أحس بإرهاق في كل أطراف جسده، نظر ببطء إلى الساعة المعلقة على الحائط فبالتة فوجدها تجاوزت العاشرة بقليل، وفجأة انتفض من سريره فزعا كالمسوع عندما تذكر الأحداث الغريبة التي حصلت معه ليلة أمس، من يكون ذلك المخلوق الغريب؟ وماذا يريد منه؟ هل هذه الدار التي يسكنها، يسكن فيها قبله أهلها من الجن؟ نعم يؤمن بالجن، لكنه لم يحسم رأيه في إمكانية رؤية الإنسان للجن وبروزهم أمامه، أو تلبسهم به، فزع مرة أخرى وانتفض جسمه انتفاضة أقوى من الأولى عندما تذكر أنه فقد وعيه بجوار باب الحجرة، فمن حمله إلى سريره ووضع عليه، ومن أبطنه بهذا الغطاء الذي كان عليه؟ بقي رأسه يموج بهذه التساؤلات، بينما قفز وائل من فراشه وهو يهب من باب الغرفة الذي وجده مواربا. فتش في كل أنحاء بيته، فوجد كل شيء في مكانه كما تركه، أيمن أن يكون كل ما عاشه أمس خيال لا يمت إلى الواقع بصلة؟، رفض هذه الفكرة

بشدة، فهو متيقن أن ما حصل معه أمس حقيقة لا خيال، لكن حتى يحى حياته بشكل طبيعي يجب أن ينسى ما حصل معه، وألا يخبر به أحدا، هكذا قرر، أخذ حماما ساخنا ثم صلى وقرأ القرآن وأكل وجبة فطوره، وعزم المضي نحو الكلية ليطلب منهم شهادات جديدة.

وصل وائل إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تذكر وهو يقتحمها السنوات الثلاث التي قضاها بها، تذكر حياته الجامعية هنا مع زملائه وأساتذته، صعد إلى الطابق العلوي حيث تتواجد العمادة، طلب من كاتبته أن تخبر عميد الكلية رغبته بمقابلته لأمر هام، أشارت عليه أن ينتظر بعض الوقت، جلس على مقعد بجواره وقد شرد ذهنه، لم يكن يفكر في هذه اللحظة إلا في الانتظار نفسه، يتساءل مع ذات نفسه، لماذا محتوم على المواطن المغربي الانتظار كلما وطئت قدماه باب إدارة ما؟ هل الانتظار حتمي عليهم، حتى وإن كانت بغيته مجرد مصادقة على وثيقة معينة، كيف تتقدم أمة ومواطن فيها لا يستطيع أن يحصل على ورقة إدارية، إلا بعد الانتظار الممل أو أن يدفع رشوة تسهل عليه أمره؟ كيف تتقدم أمة وجل الإدارات العمومية مغلقة في وجه العموم؟ فقد ملّ المواطن من تماطل موظفي إدارات بلاده، فلا يحصل على الورقة التي هو بحاجة إليها إلا بعد فوات أجلها، إلا من رحم الله من موظفيها.

أخرجته الكاتبة من شروده وهي تأذن له بالولوج لمقابلة العميد، دخل وائل وألقى التحية على عميد الكلية المتربع على كرسيه الفاخر المتحرك أمام مكتبه الجلدي، لم يُلفت نظر وائل شيئاً غير اشتعال رأس العميد "نور الدين" بياضاً، منذ سنوات فقط عندما كان طالبا بهذه الكلية، لم يكن شعر رأسه بهذه الحدة من البياض، أه كيف تفعل السنوات فعلتها في الإنسان وهو غافل عنها، قعد وائل على المقعد المجاور للمكتب بعد أن أشار له العميد بالجلوس.

- تفضل يا بني في ماذا يمكنني أن أخدمك؟

شرع وائل يسرد عليه مشكلته من بدايتها والطلب الذي جاء من أجله، وقبل أن يجيبه عميد الكلية على طلبه حك رأسه الأبيض بكفه متصنعا التفكير وعيناه تبحثان عن شيء وهمى بالسقف، ثم قال بلغة أكاديمية:

- تعتبر الشهادات الجامعية من الشهادات التي يصعب تعويضها في حالة فقدانها أو ضياعها، لأنه كما تعلم فالشهادة لا تسلم إلا مرة واحدة فقط، وهذا منصوص عليه بالشهادة نفسها التي حصلت عليها، ويوجد أمامك حل وحيد في نظري، وهو أن أمدك بشهادة بديلة تسمى "شهادة الاعتراف" أو "شهادة النجاح"، وبحصولك عليها ستثبت أنك حاصل على تلك الشهادات الجامعية التي ضاعت منك.

قال وائل بشيء من الأسى.

- لكن يا سيدي العميد لا يمكنهم في المركز قبول شهادات الاعتراف، فمديرها الحاج يونس وأنت تعرف صرامته في تطبيق القانون، أكد على ضرورة وضع الشهادات الأصلية بالمركز.

صوب العميد نظره في عيني وائل كأنه يقتلع منهما الكلمات التي سيلقيها عليه بعد قليل، ثم قال دون أن يحيد عن لغته الأكاديمية:

- إذا أمامك خطوتان أساسيتان، أولاً يجب عليك التصريح بضياع شهادتك لدى الجهات المختصة عند الشرطة أو الدرك الملكي، ثانياً ينبغي أن تقدم لنا طلب الحصول على نظير هذه الشهادات مرفوق بطلب خطي للتصريح بالضياع من عند الشرطة، وستحصل على شهادتك إن شاء الله.

- وكم هي المدة التي تحتاجونها لتكون الشهادات جاهزة؟

- فهمت من سؤالك أنك تريدها قبل المهلة التي أعطها لك مدير المركز، والمهلة المتبقية لك هي ثمانية أيام فقط، لكن قصدي مما أطلعتك عليه وتلفظت به هو مجرد خطوات تتبعها لاستخراج شهادتك، وإلا فإنها لا يمكن بتاتا جاهزيتها في هذه المدة الضيقة، وأقل وقت لتكون جاهزة هي شهر كامل.

حمل وائل جسمه من مكتب العميد وقد زادت الهموم والأشجان والأحزان تخيماً على وجهه، وسودت الدنيا أمام عينيه، فالحل الوحيد الذي كان يأمل أن يعيد له أمله قد تبخر في الهواء.

توجه إلى المركز المهني فوجدها هناك، وجد هدى كما لو كان يعلم أنه سيقابلها في ذلك المكان، وما إن رآته حتى بادرت به بالتحية، ثم سألته بتحفظ عن مستجداته، وهل تواصل مع إدارة الكلية كما اقترحت عليه. رد عليها التحية، وبصوت رخيم أطلعها بما أخبره به عميد الكلية، وما إن سمعت الخبر حتى اختفت ابتسامتها وحل محلها حزن كئيب ظهر فجأة على محياها، وكادت تسقط دمعة من وجنتيها لولا أن تشبثت بمحجر عينيها.

- لا تحزني يا أختي فنحن نؤمن بقضاء الله وقدره، والخير كل الخير فيما يختاره الله سبحانه لنا، وأنا متأكد أن الله لن يضيع عملي.

قالها وائل بعزيمة وإصرار وثقة، لا يدري أهي مصطنعة أم حلت عليه من السماء في حينه، فقبل اللحظة لم يكن حاله يعتقد ما يتلفظ به الآن، أو بالأحرى اختفى اعتقاده في غمرة حزنه وأساه، أيمن أن يكون الحب الطاهر، والنظر إلى من تحب يُحيي فيك الإيمان؟

ترك وائل هدى في مكانها بعدما تلفظ بتلك الكلمات، ثم اتصل بجمال محددًا معه موعدًا بعد العصر، وعند التقائهما تسامرا حتى الليل يبثه أخباره ومستجداته التي طرأت معه منذ لقائهما الأخير دون ذكرٍ للحدث الغريب الذي حدث معه ليلة أمس.

(12)

كانت الساعة العاشرة ليلا عندما عاد وائل إلي بيته، صعد الدرج متوجها نحو باب مسكنه، وقبل أن يضع المفتاح في قفل الباب، أحس بارتجاف في قلبه وقد تذكر ما وقع معه الليلة الماضية، فتح الباب ببطء كص يجمع اقتحام منزل غيره، ضغط على الزر الكهربائي فأضاء مصباح فناء بيته، وبخطوات متثاقلة وقلب مرتجف ورأس يحمق في كل الأنحاء دخل حجرته، تأكد بعد وقت من أن الأمور كلها على ما يرام، استلقى على فراشه ورأسه جهة مكتبه يتأمل حيث كان موضع حاسوبه ومحفظته التي بها شهاداته، وإذا به كذلك حتى وجد نفسه ينتفض منتصبا بجذعه العلوي إلى الأمام عندما أبصر ورقة فوق مكتبه، جلس على سريره مصفر الوجه مكفهر الملامح وقد عرق جبينه وظهرت آثار الدهشة بادية عليه، فهو لم يتذكر أنه احتفظ بورقة بمثل هذا اللون والشكل على مكتبه، ولا توجد مثلها بحوزته، من أين جاءت هذه الورقة إذن؟ أتكون ممن سرق شهاداته وعاد ليساومه عليها؟ من هذا؟ وكيف دخل؟ وماذا يقع في هذه الدار؟

اقترب من مكتبه، مد يده ببطء ناحية الورقة، فتحها وأخذ يقرأ ما كُتبت فيها: "السلام عليكم صديقي، أولاً سأعتذر لك لأنني أفزعتك الليلة الماضية، وأنا ما جئت إليك إلا لأرد لك بعض جميلك فقط، فأنا ممتن لك بحياتي، نعم أنا لست من جنسكم البشري لكنني لا أسعى لإيذاءك البتة، وأريد أن أعلمك حتى لا يقع لك مثلما وقع أمس أنني أود التحدث معك الليلة فكن مستعداً".

ما أن وصل وائل إلى هذه الجملة إلا وبه يرمي الورقة من يديه، وقد عاد قلبه ليدق بقوة كطبول إفريقية، ارتسم الذعر على وجهه، أخذ يفتش بمقلتين جامدتين في زوايا الغرفة عن هذا المخلوق الغريب، ثم أخذت نسبة رمش عينيه في الارتفاع عن المعدل الطبيعي عندما صوب عينيه اتجاه الباب، فقد خمن أن يكون وراءه، رغم ذلك أمسك بمقبضه وفتحته بقوة فلم يجد وراءه أحداً، مما أعطى لنفسه بعض الهدوء وشيئاً من الارتياح، بحيث أن مساحة مجال بصره أصبحت أوسع وليست مقتصرة على جدران الحجرة الأربعة، راح يتنفس ببطء كي تنتظم أنفاسه ويهدأ قلبه، وأنداك فقط شرع ينادي بصوت متهدج.

– من أنت؟ ماذا تريد مني؟ حسناً أبرز أمامي لأراك، وأرجوك لا تُلحق بي مكروهاً.

وما إن أفلتت منه الكلمة الأخيرة حتى رأى خلف الباب المفتوح ظهور ظلال مخيفة غير محددة المعالم، وقد شرع مخلوق غير مميز

الملاح بعد يتشكل من الظلال أمام ناظري وائل، كأن هناك من يقوم برسمه بخفة ووائل مذعور مما يحدث أمامه، قلبه يضطرب بقوة، وملامحه متصلبة تراقب بتوتر المشهد المتشكل أمامه، وقد هجمت عليه الكثير من الهواجس، وفجأة اختلطت ملامح الذعر في وجه وائل بملامح الدهشة والاستغراب، حتى لا يكاد أبرع من له موهبة التخيل أن يتخيل وجه وائل في تلك اللحظة، فالذي يظهر ويتشكل أمامه الآن ليس هو إلا الطفل الذي أنقذه من حادثة السير، وها هو قد باشر الاقتراب من باب حجرته وهو يبتسم، اندفع وائل إلى أقصى زاوية في غرفته ومقلتيه شاخصتين ومتصلبتين على المائل أمامه، وفمه مفتوح من الذعر، ويداه أمامه كأنه يدفع بهما هذا الطفل الذي وقف بالباب، وحتى لا يفقد وعيه كما وقع معه الليلة الماضية أمر الأدرينالين ليندفع في عروق وشرايين جسده ليجعله متمسكا بالحياة والوعي لأطول فترة زمنية يتحمل فيها ما قد يعيشه من أهوال.

وفجأة سمع الطفل يقول له:

- لا تخف يا وائل، أنا لم آت لإلحاق الأذى بك يا رجل، وإذا لم ترغب برؤيتي فسأنصرف حالا ولن تراني مجددا.

هنا استعاد وائل بعض رباطة جأشه وتساءل والخوف ما يزال باد على ملامحه كلها.

- من أنت؟ وماذا تريد مني؟

- اهدأ الآن يا فتى وستعرف كل شيء، فقلبي لا يتحمل رؤيتك في هذه الحالة.

أخذ الهدوء تدريجياً يتلبس وائل مما أعطاه القدرة على الوقوف بعدما كان قابعا في زاوية الغرفة، وبعدها أكمل الطفل كلامه.

- اسمي هوميروش، أنا لست من جنسكم، أنا طفل من الجن، وكما قلتُ في الرسالة التي قرأتها، أن ما دفعني لمقابلتك المرة السابقة وهذه المرة هو مجرد رد بعض معروفك، لأنك أنقذتني من موت محقق عندما كاد ذلك المتهور أن يدهسني بسيارته، وليس في نيتي إلحاق أي مكروه بك يا صديقي.

شعر وائل بالاطمئنان بعد هذا الكلام ثم قال له:

- إذن الطفل الذي أنقذته لم يكن طفلا بل أنت، أقصد كان طفلا جنيا، لكن لماذا لم تتمثل في صورته أمس عندما برزت أمامي بتلك الصورة البشعة.

ضحك هوميروش ضحكة مرتفعة وقد فطن وائل لسبب ضحكه، وأحس بالخجل لأنه نعتة بالصورة البشعة، ليقول الطفل الجني بعدها:

- معك حق يا صديقي، أنا مخطئ، رغم أن ذلك خارج عن إرادتي، وكما ترى فأنا ما زلت طفلا حقا، وتغيبُ عني بعض الأمور لصغر سني، فعندما خرجتُ من عالمنا ودخلت عالمكم نسيت أن أتمثل في صورتكم الإنسية كما فعلت من قبل، وحسبتُ أن صورتي الخلقية كما

نراها نحن طبيعية جدا قد تبدو لكم كذلك، ولم أكن أدري أن كل مخلوق يعتاد على صورته الخلقية فقط، وصدقني يا وائل إن قلت لك أن صورتكم الإنسانية أنتم أيضا تفرعنا وتخيفنا نحن الجن.

ضحك وائل من كلام هوميروش وقد أحس بأن الحواجز التي كانت بينهما قد زالت، مما دعاه إلى الإحساس بالارتياح بعض الشيء، وقد دعاه إلى الجلوس على كرسيه ووائل يقترب منه بعض الخطوات ليجلس على سريره، لذلك تجرأ مرة أخرى وسأله متعجبا.

- عندما فقدت الوعي أمس سمعت صفة قوية ولم أدر ما حدث بعدها، وعندما استيقظت وجدت نفسي على فراشي وليس على الأرض!؟

توردت وجنتا الجني خجلا، وقال وهو يجلس على الكرسي ورأسه مطرق إلى أسفل:

- أبي يمنعني بحزم من الدخول إلى عالمكم، فقوانيننا نحن المسلمين من الجن لا تسمح بذلك، فأول مرة وطئت فيها عالمكم يوم أنقذتني، وعندما دخلت للمرة الثانية وأنا أحمل باقة زهور عرفانا لجميلك، لم أكن أعلم أن أحد علمائنا صنع جهازا لا سلكيا يستخدمه الآباء في ترقب الأبناء، وذلك أن أي طفل من الجن إذا أمسكت يده شيئا مهما كان ودخل عالم الإنس فإن والده يعلم بمكانه فوراً، لذلك عندما حملتُ معي باقة ورود ودخلت عالمكم علم أبي من خلال ذلك الجهاز بمكاني

وجاء بسرعة وصفعني، لأنه حذرني مرارا من هذا السلوك، وبعدها خلد أبي لنومه، وعلمت أنك ما تزال نائما مفترشا الأرض جئت مع ابن عم لي ووضعناك على فراشك ثم عدنا إلى حال سبيلنا، أما الورقة التي قرأتها قبل قليل فكتبتها في عالمنا وأتيت بها إليك أحملها بفمي، ولم ألمسها بيدي عندما ولجتُ عالمكم.

هنا قال وائل بتحفز.

– إذا فهمت من كلامك أو لا أنك وأهلك من أهل الإسلام مثلنا، وفهمت أيضا أنك إذا أخذت أي شيء بيدك فإن والدك من خلال جهازكم سيتعقبك ويعلم بمكانك، وما جعلك الآن تجلو في عالمنا دون علم والدك هو أنك لم تلمس أي شيء بيدك.

هز هوميروش رأسه تأكيدا لكلام وائل، ثم رفع رأسه كأنه يفكر في شيء ما قبل أن يسأل وائل بتعجب قائلاً:

– رأيتك أمس حزينا جدا! ما سبب ذلك يا صديقي؟ وهل هناك ما يستحق كل ذلك الحزن؟

قص عليه وائل كل ما حدث معه، وكل ما مر به منذ حصوله على شهادته، والطفل الجني يستوقفه ليسأله من حين لآخر باستغراب عن مدى أهمية مجرد أوراق لتأثر على حياة الإنسي وعيشه ومصيره ومستقبله، وبعد أن فهم هوميروش وضعية وائل، باح له بأنه كان مصمما على ألا يُكثر زيارته لعالم الإنس، لكن غيرَ الطفل الجني

رأيه الآن، وواعد وائل بزيارته مرات أخرى عسى أن يساعده في استرجاع شهاداته. فهل حقا كسب وائل حقا يناطح الجبال إذ وجد جنيا يشد من عضده وأزمع مساعدته؟ لكن وائل لا يريد أن يعرض هوميروش لسخط والده وعقابه، فأفصح له بذلك، فجاء جواب هوميروش قاطعا.

- أنا سأتي إلى هنا من أجل فعل الخير فقط، ورد بعض معروفك، وعندما تنتهي مهمتي سأرحل من هنا بلا رجعة، والآن حان موعد عودتي إلى عالمي، وسأعود غدا إلى عالمكم من أجل تأديب ذلك المتهور الذي كاد أن يقتلني، فقد قمت آنذاك بالمسح الضوئي بالكاميرا في عيني، فالتقطت صورته ورقم سيارته، إلى اللقاء صديقي وائل ولا تخبر أحدا بأمرى.

- وهل تستطيعون التصوير بأعينكم فقط دون استخدام أجهزة متطورة كما نضع نحن؟ كيف ذلك؟ حسنا لا تنس زيارتي غدا.

قالها وائل لكن هوميروش كان قد قام عن الكرسي وأخذ يتموه في مكانه ثم اختفى كأن شيئا لم يكن ووائل يلحقه بأسئلته ويحملق فيه مندهشا.

(13)

اليوم الثالث

في المركز الجهوي، وبالتحديد داخل الإدارة المكيفة، كان مدير المركز الحاج يونس يجلس على مقعده الجلدي الفخم خلف مكتبه، وكان يجلس قبالة نائبه "محمود"، محمود تجاوز الأربعين سنة بأربع سنوات، متزوج وله ثلاثة أطفال، طويل القامة معتدل الهيئة، حليق الوجه، لا يفارقه لباسه الرسمي، في عمله على أقل تقدير، اشتهر بين زملائه بسوء فيه يلازمه، ولا يكاد يفارقه، وهو أنه متسرع في اتخاذ قراراته، لا يفكر في الأمر مرتين، بل يكفي أن ينظر في الأمر مرة واحدة ثم يعطي فيه رأيه وقراره، لكن ما عسى الحاج يونس أن يفعل، فهو نائبه الذي تم اختياره له منذ وفاة نائبه السابق منذ أشهر.

غرق الحاج يونس في الحديث مع محمود حول أمور العمل والإدارة، في تلك الأثناء دخلت عليهما سميرة تحمل بين يديها عددا لا بأس به من الملفات، وضعتهم على مكتب المدير ثم قامت منتصبة، نظرت إليه وهي تمسح بكفها عرقا مفترضا على جبهتها، وتأوهت كمن أنهى عملا شاقا لتوه ثم قالت:

- هذه آخر مجموعة من الملفات الخاصة بالأساتذة المتدربين، فقد قام كل من نجح في المباراة بالتسجيل في المركز، وبالتالي فلا نحتاج للأسماء الموجودة في لائحة الانتظار في كل التخصصات.

- كلهم؟ كلهم وضعوا شهاداتهم عندنا في المركز!؟

تساءل معها الحاج يونس باستغراب وهو يميل بجذعه على مكتبه، ظهر الانبهار جليا على محياه، يعقد حاجبيه ويضيق من عينيه دهشة، ينتظر من سميرة توضيحا ما، أو أن تقص عليه ما غاب عنه من أحداث في تقديره، هنا أدركت سميرة ما يصبو إليه، وما لم تضعه في حسابها، فقالت:

- في الحقيقة كلهم قاموا بالتسجيل ووضعوا شهاداتهم عندنا، باستثناء المسمى وائل أبو الفضل، فقد حاول التسجيل في أول يوم وترك عندنا النسخ المصادق عليها من شهاداته، لكن كما تعلم لم يأت إلى حد الآن بشهاداته الأصلية.

عاد المدير برأسه إلى الخلف وقد ظهر عليه الكمون والإحباط جليا، هز رأسه متفهما، وأمامه كان نائبه يتابع الحوار وقد بدا كتلميذ لم يفهم درس أستاذه، التفت المدير إلى سميرة وحرك رأسه دلالة على الموافقة بعد أن استأذنت للخروج، شكرها على أداء مهمتها على أكمل وجه، ثم تحول بنظره إلى نائبه محمود قائلا:

- وائل هذا أضع شهادته الأصلية، وقد أعطيته مهلة عشرة أيام للتسجيل في المركز، وإلا فسيتم دعوة أول من يوجد في لائحة الانتظار من تخصصه، واليوم استنفذ ثلاثة أيام من المهلة التي أعطيتها له، ولم يتبق معه من الوقت سوى سبعة أيام.

حرك نائب المدير رأسه متفهماً، وتابع المدير قائلاً:

- كما أخبرتك، إجازتي ستأخذ مني أربعة أيام، كل شيء تركته على أحسن ما يرام، وفي حالة وضع وائل شهادته عندنا في فترة غيابي، اسمح له بولوج قاعات التكوين مع زملائه الأساتذة الذين سيباشرون تكوينهم وتدريبهم يوم الإثنين.

- لا تعباً لشيء الحاج يونس، كل الأمور ستسير وفق ما تحب، وأرجو لك إجازة مريحة.

تلفظ بها نائب المدير وهو يترنح للقيام، ثم مد يده وصافح يد الحاج يونس، واستدار بجسده جهة الباب ثم خرج وأغلقها وراءه، والمدير يتبعه بنظراته وقد التصقت عيناه فوق باب الإدارة حتى بعد خروج محمود وهو شارداً في أفكاره، ولم يفق منها إلا بطرقات سمعها على الباب بعد خروج محمود مباشرة، حرك رأسه كأنه يتخلص من الأفكار التي علقت به، ثم استوى في جلسته وأذن للطارق بالدخول.

- السلام عليكم سيدي الحاج يونس، أنا أستاذة متدربة، تخصص الرياضيات، في الواقع أريدك في موضوع ليس لي علاقة به.

ظهر على ملامح المدير التعجب والاستغراب، ولم يتفوه بكلمة بعدما صمتت المتكلمة، كأنه يحاول قراءة الموضوع الذي جاءت من أجله فقط من خلال عينيها، وبعد هنيهة قال لها:

- تفضلي بنيتي ما الأمر الذي تودين الحديث عنه؟

قالت بحرج.

- نحن هنا سيدي في مركزكم جسد واحد، يُسعدنا ما يُسعد كل فرد منا ويحزننا ما يحزنه، وقد علمت ما حصل مع الأستاذ وائل، فأردت أن أطلب منكم بل أترجاكم سيدي أن ت....

لم تكمل جملتها، بل لم يتركها المدير لتكملها إذ وجدته يقاطعها متحدثا، وقد تغيرت ملامحه إلى شيء يُشبه الغضب، رغم أن الغضب لم يكن ليُسغه في تلك الأثناء ليظهر على وجهه، فلامح وجهه الرقيقة واللطيفة لا تساعده لمثل هذه الحالات.

- أستاذة نحن هنا لا ننتظر طلب أو رجاء أحد، بل نقوم بواجبنا على أكمل وجه، ولا نميز بين أحد من أساتذتنا، ما يجمعنا هنا هي مجموعة قوانين نلتزم بها.

صمت برهة ثم صوب عينيه في عينيها، وقال متشككا.

- ما صلة القرابة بينكما حتى تسمح لي لنفسيك بالوساطة له؟

أطرقت هدى رأسها إلى الأرض مليا وغرقت في عرقها، وقد
شبكت بين أصابعها وتركت الإبهامان يدوران على بعضهما البعض
بشكل دائري، وهي تفكر في الجواب المقنع على سؤال المدير، رفعت
رأسها ببطء وقالت بصوت مضطرب مرتعش وقد خرج مبحوحا يكاد
لا يُسمع:

- أرجو ألا تسيء الظن بي أستاذي، كما ذكرت لك هو أحد إخواننا
في المركز، وليس لي صلة به إطلاقا، نعم صحيح كلنا يجب أن نلتزم
بالقوانين، لكن بجانب القانون يوجد روحه، روح القانون، على أي
أعتذر منكم عن الإزعاج، أستاذك في الانصراف.

استدارت بجسدها جهة الباب مستعدة للانصراف، استوقفها الحاج
يونس وقد رقّ لحالها وأحس بصدق شعورها وإحساسها الإنساني.

- بنيتي نحن أيضا يُشغلنا ما يُشغلك، ويهمنا أن يكون وائل معنا،
خصوصا أنه فتى مجتهد وله نقطه العالية التي تؤهله لمنصب كهذا،
لكن كل شيء بقضاء وقدر، أرجو أن يُوفّق في التوصل إلى شهادته
في المهلة المتبقية له، لكن لا يمكننا هنا أن نقبله من دونها، فلا يمكننا
التلاعب بالقوانين إطلاقا.

حركت هدى رأسها متفهمة، وابتسامة باهتة ولكنها صادقة ظهرت
على وجهها فأضاءته، وأخفت الحزن الذي كانت فيه، ثم توجهت نحو
الباب للخروج.

(14)

كان النهار قد تخطى منتصفه بساعة، حيث كانت الشمس ترسل أشعتها الحارة إلى شوارع وأزقة المدينة، بينما الناس في الطرقات والساحات غير أبهين بها وبحرها وقيظها، فكل فرد منهم منشغل مع أشغاله، مع تجارته وبيعه وشرائه، كان هناك هوميروش بينهم، لم يكن أحد منهم يراه، أو على الأصح هو نفسه لا يظهر لأحد منهم، يرى كل الناس وهو خفي غير مرئي لهم، كان في عيني هوميروش في تلك الأثناء شيء مثل الكاميرا يوجهها مع تحريك رأسه في كل اتجاه، وقد لا يستطيع من يبصرها في عينيه أن يجزم بكونها مركبة بعناية أم أنها جزء من أعضائه، فيبدو أن هؤلاء الجن متطورون ومتقدمون أكثر منا نحن الإنس، أو على أقل تقدير من عالمنا المسمى بالعالم الثالث أو المتخلف، فإذا كان طفل منهم يستطيع بجهاز في عينيه التقاط الصور، والآن البحث عن شيء ما بمُقلتيه، فليس لهذا دلالة إلا أنهم وصلوا بتكنولوجياتهم وصناعاتهم إلى ما لم نصل إليه نحن الإنس.

برزت في الجهاز المخلوق أو المركب على عيني هوميروش
نقطتين تفصل بينهما مسافة معينة، نقطة خضراء وأخرى حمراء،
وكلما أكمل طريقه في الاتجاه الذي يسير فيه، أخذت النقطة الخضراء
تقترب شيئاً فشيئاً من النقطة الحمراء، فلا بد أنه قال لوائل جاء
لينتقم ممن كان سيرديه قتيلاً بسيارته.

استمر الطفل الجني في طريقه، واستمرت النقطة الخضراء في
الاقتراب أكثر من النقطة الحمراء، حتى كادت تلتصق بها، مما تبين
لهوميروش أن هدفه على وشك الوصول إليه.

وقف هوميروش وابتسم ابتسامة مآكرة وهو يحرق بالفيلا المتواجدة
أمامه، توجه نحوها واخترق صورها المحيط بها بجسده، لنجده داخل
حديقة الفيلا، وبالتحديد أمام مرأب السيارة، اقترب منه فوجد المرأب
قد ابتلع السيارة التي يفتش عنها، تفحص رقمها جيداً ليتأكد من
مطابقته للرقم المصور في الكاميرا الضوئية لعينيه، ابتسم هوميروش
ابتسامة من حقق نصراً مؤزراً، خرج من المرأب، اخترق الباب
الرئيسي للفيلا، صعد بعض درجات السلم، وقف أمام باب أول غرفة
تقابلة في الطابق العلوي، اخترقه ليجد نفسه مع شاب وامرأة.

– اسمعيني جيداً، أريد منك إحراق هذه الشهادات في أقرب وقت
ممكن، لا أريد أن أراها ثانية هنا هل فهمتي؟

- نعم فهمت، لا تقلق سأبني طلبك عند قدوم أول شاحنة للأزبال، سأضعها في وسط السطل المخصص للأزبال، وسيقومون هم بحرقها في المكان المخصص لذلك.

استشاط غريب غضبا، وقد بدت شرارات اللهب تخرج من عينيه.

- ألا تفهمين ما قاتته لك يا فوزية؟ لو كنت أردت ذلك لصنعتة بنفسى، قلت لك قومى بإحراقها بنفسك، لا يهمنى المكان الذى ستحرقينه فيه، ما يهمنى هو التخلص منها اليوم قبل الغد، فهمتى؟

أومأت فوزية برأسها متفهمة وهي تمد كلتا يديها بخفة لتأخذ الأوراق.

أما هوميروش فقد صعق في مكانه وتسمرت جوارحه، وآثار الدهشة بادية على ملامحه المخيفة، ارتفعا حاجباه من الدهشة وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما بشكل لافت، ولو كُشف الحجاب لغريب وفوزية لبيصراه لأغمي عليهما في الحال من المنظر المخيف الذى أصبح عليه هوميروش الطفل الجنى.

استلمت الخادمة الشهادات، فألقى هوميروش نظرة عليها، فتأكد من اعتقاده الذى اعتقده اللحظة بشأن هذه الوثائق، وأنها تخص وائل، وائل أبو الفضل، إذن فالمتهور الذى كاد يقتلنى هو نفسه الذى سرق شهادات وائل؟ والآن يريد التخلص منها كما حاول التخلص منى؟ لماذا البشر هكذا؟ أيعقل أن يصل بهم الحسد ليتمنى الواحد منهم زوال النعمة عن الآخر دون أن يُحقق مبتغى أو رغبة من ذلك؟ لو يعلم

هؤلاء البشر أن الحسد حطب لنار تأكل صاحبها قبل غيره ما حسد، ما بال البشر يُلحقون الأذى ببعضهم البعض، قد أتفهم أن يُلحق الجني الأذى بالبشري، أو يُلحق البشري الأذى بالجني رغم أن ذلك لا مسوغ لحدوثه، لكن لا أتفهم أن يلحق بعضهم الأذى ببعض جنسهم الآخر.

اختلطت الأفكار في رأس هوميروش، فلم يعد يدري ما يصنعه، جاء لينتقم لنفسه، وإذا به يهتدي بكل سهولة إلى ما وعد صديقه بأن يساعده في الحصول عليه، ففكر لثانية أن يختطف الشهادات من بين يدي الخادمة، وبعدها فليفقد الوعي، بل فليموتا، لا يهمه الأمر، وكاد أن يفعلها لولا أنه تذكر أنه بمجرد أن يلمس الشهادات بيديه، فإن والده سيعلم مكانه بجهازه المتطور، وسيعاقبه شر عقاب، فترجع عن ذلك في آخر لحظة، بعدما كان قد مد يديه الاثنتين لسحبها واختطافها كص محترف يستعمل خفة يديه في السرقة والاحتيال على الناس.

أخذ هوميروش يفكر، يستجدي رأسه لئسقط عليه أي فكرة يُنقذ بها ما يمكنه إنقاذه، وقد بدا كطفل غبي عاجز عن التصرف بحكمة وروية وهو يقطع الحُجرة مجيئاً وذهاباً، بل كان يسبح في مجالها الفارغ في الهواء، ولم يكن يخطو خطواته على أرضها.

لاحظ له فكرة من بعيد، ابتسم لها، فدنت منه؛ فكر قبل أن يُخبر وائل بما علمه، أن يطلب من والده الجني أن يسمح له بزيارة عالم الإنس مرة واحدة فقط، فقد أزمع الكذب هذه المرة، قرر أن يُخبر

والده بأن أحد أصحابه من الجن علم بمكان من كاد أن يقتله، وأخبره صاحبه هذا بأن شهادات من أنقذه متواجدة عنده أيضا، فليكن ما يكون، المهم أن أنقذ مستقبل صديقي ولو بالكذب، حتى لو كانت الفكرة غبية! وإذا منعني من ذلك فسأترجاه أن يقوم هو بتلك المهمة.

اختفى هوميروش من الحجرة متجها إلى عالمهم، ولم يكن يعلم الجني الصغير بعقله الصغير وتجاربه المتواضعة بل المحدودة جدا، أن ما عزم على القيام به، قد لا سيُسعفه الوقت حتى يُنقذ شهادات وائل، ومن يدري، ربما يحدث ما لم يكن يحسب له حسابا، وبالتالي لن يستطيع فعل شيء لصديقه.

(15)

توجهت الخادمة فوزية نحو المطبخ، أخذت معها الولاعة، كانت لا تزال إحدى يديها تمسك الشهادات التي طلب منها غريب إحراقها، انزوت في زاوية قصية في حديقة الفيلا من الجهة الخلفية لمَرَأَب السيارات، قعدت القرفصاء، أوقدت النار بالولاعة التي في يمينها، واقتربت بها لإضرام النار في الوثائق المتواجدة في يسارها، استحال جزء صغير جدا في زاوية الشهادة الأولى إلى لون أسود بفعل تفاعل الدخان والاحتراق الطفيف الذي سيبدأ عمله في الشهادة، في لحظة وبخفة غير متوقعة أبعدت يمينها عن يسراها لتبتعد شرارات اللهب عن الشهادة، أطفأت الولاعة، أفضت إليها نفسها بأن تقرأ ما في الشهادات من معلومات قبل إحراقها، فهي التي حُرمت من إكمال دراستها، فقد زوّجها والدها بعد حصولها على شهادة البكالوريا، الشهادة الوحيدة التي تعرفها، فلمَ ستَحرم ذات نفسها الآن من تمتيع ناظرها من التطلع إلى هذه الشهادات الأخرى قبل إتلافها، ولمَ لا تقارن نقطها بنقط شهادة البكالوريا المتواجدة بين يديها.

لكن للأسف زواجها لم يدم سوى سبع سنوات، فقد توفي زوجها قبل ثمان سنوات بمرض أصابه، وترك لها طفل وطفلة في غاية الجمال، مما اضطررتها ظروفها القاسية للاشتغال في هذه الفيلا طلبا للقامة عيشها وأولادها، والآن ها هي مستعدة لإحراق هذه الأوراق بين يديها، كما أحرقت الحياة شبابها، كما أحرق والدها حلمها بأن تصبح طبيبة، نعم كان حلمها أن تكون طبيبة، تعالج المرضى وتسهر على رعايتهم، لكن والدها كان قاس جدا معها، زوّجها برجل في الخمسين من عمره، وهي التي لم تتم عقدين من الزمن بعد، فهل إحراقها لمجرد أوراق كإحراق والدها لربيع شبابها، الربيع الذي كانت تأمل أن يزهر ويثمر، لكن والدها كان له رأي آخر، أه يا والدي، هل أترحم عليك الآن أم ماذا؟ أما أنت يا أمي فرحمك الله، فقد أراحك القدر وأخذ روحك لتستريح من عجرفة وقسوة وشدة أبي، أخذك منه وأنت متهيئة لاستقبال الحياة، الحياة التي لم تعطك من عمرها سوى ثلاثة عقود ونيف.

أفاقت فوزية من شرودها وقد تسمرت جوارحها وتجمدت حركتها في مكانها، فمها فاغر وحاجباها التهما نصف جبهتها، وعيناها مشدوهة نحو الشهادات التي في يديها، فقد بدت في وضعية من أصيب بشلل في كل أطرافه وجوارحه، فلا يستطيع تحريك شيء منها.

– أنا وائل، وائل أبو الفضل، تشرفت بمعرفتك سيدتي.

طار بها فكرها إلى ثلاث سنوات خلت عندما قرأت اسم صاحب الشهادات، في ذلك اليوم المشؤوم حيث اضطرت الخروج للشارع قبيل آذان العشاء، لجلب شيء لم تعد تتذكره، لكنها لا زالت تتذكر وهي عائدة إلى هذه الفيلا التي تعمل فيها، أن أحد المخمورين أو ربما كان ممن يتعاطى أنواعا من المخدرات شديدة التأثير، وقف في طريقها وأمرها بتسليمه كل ما معها من مال، ترجته آنذاك بأنها لا تملك مالا، توسلت إليه أن يخلي سبيلها وأن يتبع خطاها حتى تصل إلى مسكنها وستعطي له ما يريد، لكن بدا عليه أنه لا يفهم شيئا مما تقوله، ما يفهمه الآن هو لغة المال فقط، استخرج من جيبه خنجرا حادا وأكد لها أن هذه هي فرصتها الأخيرة، اضطرب قلبها وأخذ يخفق بجنون والدموع قد ملأت وجهها، والعرق بلل ثيابها، وفجأة وجدته يهوي أمامها أرضا، مما فسح المجال للرؤية، رؤية من خلف هذا الساقط المتهاوي أمامها، الذي لم يكن سوى فتى يمسك بعصا غليظة وقد ضرب بها الرجل المخمور وأرداه أرضا، لم تفهم شيئا حينها حتى وجدته يمسك بيدها ويحثها على الجري والابتعاد عن هذا المكان، ولما تيقنا من أنهما قد تجاوزا الخطر، وقف بها، وطلب منها الحذر مرة أخرى، وعدم الخروج ليلا بمفردها.

— شكرا جزيلا لك سيدي، لقد أنقذتني منه، لن يجازيك عن هذا الصنيع سوى الخالق سبحانه، أنا خادمة في إحدى الفيلات القريبة من هنا، اسمي فوزية، وقد اضطرت للخروج، وإلا فلم أكن لأخرج.

- لا عليك، حفظك الله أختي، أنا وائل، وائل أبو الفضل، تشرفت بمعرفتك سيدتي، سأرافك إلى الفيلا التي تشتغلين بها بما أنها قريبة من هنا.

رافقها إلى مسكنها، ولم يتحرك من مكانه حتى دلفت إحدى أبوابها وغابت عن الأنظار.

كيف؟ كيف يُعقل هذا؟ ما أقصر هذه الحياة، ما أصغر حجم هذا الكون؟ ما أحقر هذا العالم، لو فعلتها لندمتُ ما حييت، كدتُ أحرق شهادات من أنقذني من ذلك المتوحش المتعجرف، بل، بل لعله خير، لعل الله أسقط هذه الأوراق في يدي من أجل أن يُنقذها بي، يا ربي رحماك، بالله ما الذي يتوجب مني صنعه الآن، كيف أتصرف؟ ماذا سأفعل؟ غريب فض غليظ القلب، إذا علم أنني لم أقم بما أمرني به فسأفقد عملي، سأفقد لقمة عيش أولادي، سيضغط على والديه ليفصلاني عن العمل، هذا مؤكد، فهو ابنهم المدلل، يا الله ألهمني ما يتوجب مني فعله، يا رب ماذا سأصنع؟ قوتي تنوء بحمل هذا العبء، أنا بين المطرقة والسندان، هل أحرق هذه الشهادات، ولربما وائل يفتش عنها الآن وقد أسدى لي معروفاء، أم أتركها وأعصي أمر غريب فأفقد عملي؟

دارت حول نفسها، لا تدري ما تصنع، بينما ذهنها مشغول بتلك التساؤلات والخيارات الضيقة أمامها، وإذا بفكرة تلوح لها في الأفق،

فكرة سقطت على رأسها كالبرق، لا، بل كالغيث الذي يحمل معه الخير، فبادرت إلى تنفيذها في الحال.

دلفت غرفتها، أغلقت عليها الباب، أخرجت هاتفها، فتحت حسابها الفايسبوكي الذي لم تقم بزيارته منذ شهور، فما الذي يمكن أن يفيد فيه هذا الفايسبوك حتى تُضيع وقتها في زيارته، كانت قد أنشأت حسابا فيسبوكيا حتى تستعمله في أوقات فراغها، لكن يبدو أنها لم ترتح له، أو أنها لم تفهم طريقة استعماله بالشكل المطلوب فتركت استخدامه، كانت تلقي عليه نظرة بين حين وآخر، نظرة ميتة فاقدة للحياة، نظرة من ينظر إلى سقف الغرفة وهو شارد في أفكاره.

ذهبت أصابعها مباشرة إلى خانة البحث، كتبت بحروف لاتينية اسم وائل أبو الفضل، تطلعت إلى النتائج التي حصلت عليها، وحملت في صور أصحابها، لكنها لم تجد في أي منها مرادها، خاب ظنها للحظات، لم تستسلم، أعادت كتابة اسمه بحروف عربية، ضغطت على زر البحث، فوجدته باسمها لها في أول نتيجة في خانة نتائج البحث، وجدت صورته المشرقة بتبسم، دخلت حسابه، تأكدت منه، ومن أنه حسابه الأصلي، وجدت منشورا جديدا لم يمض على نشره سوى يوم واحد، قرأت المنشور، فقرأت مشاعر صاحبه معه، بل شعرت بأحاسيسه ممزوجة بأحاسيسها وهي تقرأ المنشور، منشور أراد صاحبه منه أن يخلط مشاعر القارئ، بين الحزن والفرح، والقلق والارتياح، والتفاؤل واليأس والصبر والعجز والرضى والتمرد، لكن

بتجربة فوزية في عالم الأحزان والأسى والصعاب، قرأت من المنشور أن وائل به شيء ما، فهو ليس وائل الذي التقته صدفة لدقائق، نعم تلك الدقائق ليست كافية لصبر أغوار شخصيته، لكنها كانت كافية لتمييز حالة شخصيته عن حالته التي يشعر بها الآن، أو على الأقل حالته التي تحس أنه يشعر بها الآن، اتجهت إلى خانة الرسائل، كتبت الرسالة.

(16)

اليوم الرابع

في اليوم التالي لم يكن وائل على ما يرام، أصبح في الأيام الأخيرة كثير التفكير في مصيره الغامض، نعم هو يؤمن بقضاء الله، لكن ما يقلقه أن الأيام تنساب كالماء من بين يديه، وهو عاجز عن فعل شيء، عاجز عن إيقاف دورة الزمن حتى يجد حلاً لمشكلته، عاجز عن فرض نفسه على ظروف تسخر منه، ظروف اخترعت اللعبة وحددت له مسارها وشكلها وكيفية لعبها، ثم بالتالي أجبرته على أن يلعب معها في معركة غير متساوية، لم تكن تلك الأيام تبدو له إلا كلعبة هو الحلقة الأضعف فيها، أو كلاعب لا يجيد ولا يفهم لعب هذه اللعبة التي أُجبر على خوضها، فهل لهذا تفسير آخر إذا كانت مجرد أوراق تتحكم في مصيره ومستقبله، مجرد أوراق تُسلم مرة واحدة في العمر، ولا يُمكن أن تُسلم نظائرها، أي عبث هذا، أي قوانين تافهة هذه، ألا يجدر التفكير في قوانين أكثر ملاءمة لمثل ظروفه، أم أن هذا مقصود، مقصود حتى يتم التلاعب بمصير أمثاله من الشباب الذين يتساهلون في حفظ أماناتهم، فإن تساهلت اليوم في الاعتناء بما يخصك، فلا شك أنك غدا ستساهل في مسؤولياتك، في أمانات من هم تحت تصرفك،

أم أن الأمر مختلف عن هذا تماما، فقد يكون اللص الذي اقتحم منزله هو حلقة من سلسلة حلقات اتفقت وشاركت كلها لحرمانه من وظيفته، لكن أين الحكمة من إقصاء فرد واحد من منصبه وتعويضه بآخر.

أحس وائل برأسه يكاد ينفجر من كثرة تساؤلاته وشكوكه، أربعة أيام، أربعة أيام أصلية تسربت من بين يديه، ولم يتبق من المهلة سوى الستة الأيام التي منحها له مدير المركز خصيصا، ستة أيام يعتبرها من الوقت بدل الضائع، لم يستطع تسجيل أي هدف في الوقت الأصلي فكيف يمكنه تسجيل هدف الفوز في وقت يعوضه عن وقته الضائع الذي أسرفه في نومه وأكله وتفكيره غير المجدي.

لم يستطع وائل أن يحبس رأسه عن التفكير، زرع غرفته ذهابا وإيابا، ثم حرثها، ثم جلس على كرسي يترقب نضجها لحصادها، وقد انتقل تفكيره إلى هوميروش، هوميروش الذي لم يزره يوم أمس، انتظره طول الليل ولم يأت، ما الذي قد حصل له، هل أصابه مكروه، أم أنه تخلى عن فكرة مساعدته، أم أنه أقنع نفسه بأن مساعدة البشر أمر لا يستحق عصيان أوامر الآباء؟ لكنه وعدني، وعدني بمساعدتي في نازلي ما أمكن، في هذه الأثناء نظر وائل إلى نفسه شزرا يبتسم بسخرية منها، فهو الذي أُغمي عليه في المرة الأولى التي زاره فيها، وهو الذي كاد قلبه يتوقف عن النبض في زيارته الثاني له، والآن يود أن يزوره، أي تناقض هذا، ثم وجد نفسه مرة أخرى يبتسم بسخرية ممزوجة بالألم والاستهزاء من نفسه، فبعد أن كان يفرُّ إلى ربه في

كل نائبة أو نازلة حلت به، الآن قد نسي ربه وبدأ قلبه يتعلق بمخلوق مثله، أي وقاحة وقعت فيها يا وائل، هل دنياك أنستك آخرتك، أنستك ربك، عد إلى رشدك يا وائل، عد إلى إيمانك، فمآل مشكلاتك بيد ربك لا بيد مخلوق مثلك.

شعر وائل بألم في رأسه وهم في صدره، لا بد أن يخرج من هذا المنزل الذي ضاقت جدرانه به، تذكر صديقه جمال الذي لم يره منذ يومين، قرر أن يتصل به ليتفق معه على موعد يلتقيان فيه ليبيته أحزانه وشجونته، لعل ذهنه يهدأ من كثرة إجفاله، أخرج هاتفه من جيبه، وما إن نظر في شاشته وهو يقترب بأصبعه منه ليزيح الشريط المكتوب فيه: "اسحب بأصبعك على الشاشة لإلغاء قفلها"، حتى تراءى له إشعارا عبارة عن رسالة فيسبوكية طويلة لم يُظهر له الهاتف منها إلا سطرا واحدا، ولم تقرأ عيناه من ذلك السطر إلا جملة واحدة: "شهادتك في أمان"، خفق قلبه واضطرب، بل ضرب بقوة صدره، أحس برعشة في جسده، بقطرة عرق تتسلل من فوق ظهره لتقوم بهوايتها المفضلة، هواية التزلج على عموده الفقري، لم ينتظر كثيرا، لم يكن يستطيع الانتظار، فتح حسابه الفايسبوكي، إلى خانة الرسائل مباشرة، رسالة تتربع على عرش الرسائل التي لم تُقرأ بعد، من مرسل لا يعرفه، بل مرسله، تضع في حسابها اسم بحروف لاتينية، "فوزية الصابرة"، لا يهم، المهم أن أقرأ الرسالة، قرأ الرسالة:

"السلام عليكم أخي وائل، لا أدري هل تتذكرني أم لا؟ أنا الخادمة فوزية التي أنقذتها من سكير منذ ثلاث سنوات، أريد أن أخبرك بأمر مهم، شهادتك في أمان، أرجو أن تأتي قرب الفيلا التي أسكن فيها في أقرب وقت ممكن لنتحدث في الموضوع، عندما تأتي سأوضح لك كل شيء".

اعترت جسده رجفة متشنجة، جلس على كرسي أمامه بعدما كان واقفا، أعاد قراءة الرسالة، فلم يعلق بذهنه غير كلمتين، "فوزية"، "شهادتك في أمان"، من فوزية هذه؟ نعم هذا الاسم موجود في زاوية من زوايا ذاكرته، لكن متى التقاها؟ أعاد قراءة الرسالة، " الخادمة فوزية التي أنقذتها من سكير منذ ثلاث سنوات"، شرد ذهنه بينما عيناه في وضعية من يدقق بهما النظر ليبرر شيئا صغير الحجم، ويحتاج جهدا لإبصاره، نعم تذكرها، هي تلك المرأة المسكينة التي تعرضت لمحاولة سرقة، أعاد قراءة الرسالة مرة أخرى كلمة كلمة، بتركيز وانتباه لكل معانيها، وكأنه يُحلل نصا فلسفيا، أو يستخرج مقصودا شرعيا من نص فقهي، الآن فهم كل شيء، الشهادات عند الخادمة فوزية، وتطلب منه لقاءها في أقرب وقت قرب الفيلا التي رافقها إليها في إحدى سنواته الجامعية، لكنها لم تقل له أريدك هناك لأسلم لك شهادتك، قالت: "لنتحدث في الموضوع"، ماذا يعني هذا؟ هل؟ هل تود مساومتي عليها؟ هل تحتاج المال؟ لكن من أين سأتي لها بالمال؟ وكيف أنستها السنوات الثلاث في المعروف الذي أسديته لها، نعم لم

تطلب مني نجدتها آنذاك، لكن كان لزاما مني التدخل لإنقاذها، لحظة،
من أين حصلت على شهاداتي؟ كيف وصلت إليها؟ لم أعد أفهم شيئا،
في الأمر لغز ما، وسأعرفه اليوم، إذن الوجهة ليست إليك صديقي
جمال، أعتذر منك، بل الوجهة إلى الفيلا التي تعمل بها فوزية لعلّ
ذاكرتي تسعفني لأتذكر موقعها.

(17)

استطاع وائل بعد بحث واستقصاء، وبعد أن أجهد ذاكرته وهو يجتر من زاوية مظلمة في دماغه أحداث مرافقته لفوزية قبل أعوام لعله يتذكر مكان الفيلا، بعدها استطاع الوصول إليها، وها هي الآن ماثلة أمامه، في البداية شك أن تكون هي الفيلا التي يفتش عنها، فقد بدت له مختلفة تماما عما كانت عليه، فربما آنذاك لم يُعرها اهتماما، أو ربما قام أصحابها بتغيير طلائها وأدخلوا عليها تحسينات كما يراها الآن، لكن ما أكد له صحة فرضيته وأن هذه الفيلا هي المقصودة، شجرة كبيرة قرب الفيلا كان قد وقف بجانبها حينما دلفت فوزية إلى الداخل بعد تلك الحادثة.

دنا وائل من الفيلا وهو لا يدري ما يفعل، فكر في أن يطرق الباب، لكنه تراجع عن ذلك خوفا من أن يحدث لها الحرج مع أهل البيت، لكن كيف يُمكن مقابلتها؟ لبث مكانه مدة ساعة يرجو أن يراها أو أن تخرج، يرجو أن تحدث صدفة ما فيراها، رغم أنه يؤمن بالأقدار لا بالصدف، وأخيرا أزمع على طرق بوابة الفيلا، بعد ثلاث طرقات لم يصل إلى سمع وائل أي استجابة كأن الفيلا مهجورة، لفت انتباهه

وجود أزرار الهاتف المنزلي على الجانب الأيمن للبوابة الخارجية،
اختار الزر الأسفل، ضغط عليه فأحدث صفيرا سمعه من مكانه، وما
هي إلى برهة من الدهر حتى سمع صوتا أنثويا يسأله عبر الهاتف
عمن يتواجد بالباب.

اضطرب وائل، فهو لم يكن مستعدا لمثل هذا الموقف، فكر بسرعة،
بل دون تفكير وبتلقائية أعلن عن اسمه، اسمه المجرد فقط، فلا يملك
غيره.

- و. وائل

لكن باغت وائل انقطاع الاتصال، كأن اسمه أفرعها، كأن من يسمع
اسمه يُصعق في مكانه، كأن اسمه ملازم لاسم الشرطة التي تكون
مستعدة دائما لاقتحام منازل أصحابها دون مبرر أو سابق إنذار للعبث
بممتلكاتهم، لكن ما هي إلا دقيقة واحدة حتى سمع خطوات تقترب
نحو الباب، تنحى جانبا في انتظار من يفتحه، بل وتمنى أن تُرفع أمامه
حُجب الغيب فيرى من خلف الباب صاحب الخطوات قبل فتحه للباب.

فُتح نصف الباب ببطء فأطلت منه فوزية بجذعها، لم تقل شيئا، ولم
يتفوه وائل بكلمة أيضا، أبقى عينيه متسمة على وجهها، وجه رآه
من قبل، وجه قدّر له أن يمد له يد المساعدة فيما مضى، لكن هذا
الوجه تغير كثيرا، كثيرا جدا، أيمن أن تصنع ثلاث سنوات فقط شيئا
كهذا في ملامح هذه المرأة المسكينة، شحب لون وجهها، ذبل جمالها،

وإن كانت لا تزال تحتفظ ببعضه، كأن جمالها يقاوم ليستمر متربعا على عرش هذا الوجه، أخذت بعض الخيوط من التجاعيد تبرز على ملامحها، الحزن والشجن يكتسي وجهها، بل هو عنوانها البارز الذي يمكن للناظر أن يقرأه من أول نظرة، امرأة لم تبلغ عقدها الرابع بعد، لعبت بها ظروف الحياة فأهرمتها قبل هرمها، أشاقتها قبل شيخوختها، لكن ما أن تبتسم حتى تعود شابة كأن شيئا ليس بها.

في الجانب الآخر لم تكن هي أقل تأملا منه فيها، تأملته، تأملت وقفته، وجهه، أحست بأصرة القرابة تربطهما، أصرة الأخوة تجمعها به، شاب في ريعان شبابه، بدأ يخط أولى خطوات مستقبله، ما الذي تنتظره منه الأيام يا ترى، أرجو ألا تلعب به السنون كما لعبت بي، أرجو أن يكون له مستقبلا زاهرا.

ـ قرأتُ الرسالة التي أرسلتها لي في الفايسبوك فأتيت.

لم تجبه، بل أجابته بعينيها، كانت ما تزال تتأمله، فسحت المجال لجسمها بأن يخرج كله من الباب، ثم جعلت الباب شبه مغلق وراءها، تنحت جانبا ملاصقة للجدار وهي تأمل علّ من في الطابق العلوي للفيلا ألا ينتبه لوقفنها هذه، ثم شرعت بصوت خفيض تخبره بأمر الشهادات وأمرها، لم يقاطعها حتى انتهت من كلامها، ثم أخذ بعدها هو يخبرها عن أمره وأمر شهاداته، وأمر مستقبله ووظيفته، وبين لها أن مستقبله يتوقف على تلك الأوراق التافهة.

– إذا أجدني الآن بين خيارين كلاهما مر، بل مر كالعقم، إذا أعطيتك الشهادات فسأفقد عملي بلا شك، إذا لم أسلمها لك فستفقد عمك دون شك، في كلا الحالتين أهدنا سيفقد عمله، وأنا لا أريد حصول ذلك.

تلفظت بها وأطرقت برأسها أرضا وقد بدا حزنٌ صادق يبرز على وجهها، أكثر من الحزن الذي كان ملازما لملامحها، فبينها وبين الواقف بجوارها شهادة كالبطاقة الحمراء التي يستعملها الحكم ليخرج اللاعب المشاغب من ميدان الملعب، وها هو سيستعملها قريبا في وجه أحدهما ليُخرج العمل من ميدان حياة أحدهما، حينها تتم وائل مع نفسه: "لماذا يريد غريب إحراق الشهادات؟ فيمَ سينفعه ذلك!؟"، سمعته فوزية، رفعت رأسها من الأرض وهي تحديق في وائل، عيناها متسمرتان على وجهه، وكمن عثر على حل لمسألة معقدة قالت:

– قرأتُ من قبل في شهادتك أن تخصصك هو اللغة العربية، والآن بعدما أخبرتني بأمرها فهمت سبب رغبة غريب التخلص منها.

ظهر على وجهه الاستغراب، حلق في شفيتها ينتظر منها أن تكمل، أن تكمل حديثها، ليفهم هذا اللغز الذي يجعله.

– أخبرنا غريب من قبل أن اسمه يتصدر الأسماء الموجودة في لائحة الانتظار في نفس تخصصك، وإذا لم أكن غبية أو ساذجة فإن غريب يريد أخذ مكانك بعد انتهاء مهلة تسليمك لشهادتك كما أخبرتني.

حرك وائل رأسه متفهّما وقد شرد ذهنه، وأخذه إلى عالم آخر غير الذي هو فيه الآن، ولم ينتبه من جفلاته إلا على صوت فوزية تسأله عما يجب فعله الآن، فأجابها في الحين:

- أرجو منك تزويدي برقم هاتفك، وسأخبرك فيما بعد بما يتوجب منا فعله، وكوني متأكدة سيدتي لو اضطر أحدنا ليفقد عمله فسأكون أنا هو، ولن أسمح أن تضحي بأولادك وبعملك من أجلي.

تسللت من وجنتي الخادمة فوزية دمعة ساخنة على خدها، وهي تتمتم في نفسها بالأيقع هذا، ثم أخرجت هاتفها وأخذت تتلو عليه رقمها رقما بعد رقم، وهو يسجله في هاتفه.

في هذه اللحظات لم تكن فوزية تعلم أن غريب كان قد انتبه لخروجها عندما ردت على الاتصال الهاتفي للمنزل، وقد راقبها طول المدة التي كانت واقفة مع وائل، وراه يسجل على هاتفه رقمها، وإن لم يرها هي، إذ كان الجدار يقف حاجزا عن إبصاره لها.

عاد وائل إلى حال سبيله، وعادت فوزية إلى عملها بعد أن أغلقت خلفها الباب، توجهت نحو الطابق العلوي حيث كان غريب قد طلب منها من قبل أن تعدّ له كأس عصير.

- من الطارق؟

تسمرت الخادمة فوزية في مكانها وقد جحظت عيناها عندما وجدته منتصباً أمامها، تنهدت بعمق، أحست بقلبها يثور عليها للخروج من

قفصه، ابتلعت ريقها بصعوبة، لم تلجأ في حياتها إلى الكذب مع أهل الدار، كانت صريحة معهم في كل شيء، فليس هناك أنفع من الصدق خصوصاً مع من تشتغل عندهم، لكن هل تضطر في هذه اللحظة البائسة إلى الكذب، وإذا اضطرت لذلك فأبي كذبة تسعفها لتخرجها سالمة كشعرة من العجين.

– من كان بالباب يا فوزية، ألم تسمعيني؟

– أحد... أحد أقاربي، هو ليس من أقاربي، من معارفي، لكن، كنت أعرفه معرفة سطحية فقط، قال بأنه غابت عنه أخباري منذ ثلاث سنوات، فأزعم أن يأتي ليسألني عن أحوالي، هذا ما في الأمر.

هز غريب رأسه متفهماً متشككاً في نفس الوقت وقد ضيق من عينيه، أما فوزية فقد تأكدت من خلال نظراته المفزعة لها أنه لم يصدقها، وتأكدت أنه اكتشف كذبتها، لكن لم يكن لها خيار آخر، ولم يكن منها إلا أن تركته مكانه وانصرفت.

(18)

لم يكن وائل وهو يطل من نافذة بيته إلى زقاق من الأزقة في سكون الليل وظلمته إلا مستغرق في تفكيره، تتلاطم الأفكار داخل رأسه كأموج هوجاء عاتية، أمر عجيب لا يُصدّق يحدث معه، قبل اليوم أحس بأن مجرد وُريقات كان يملكها وقد فقدتها أفقدته منصبه، واليوم يشعر أن امتلاكه لنفس الُوريات قد يُفقد غيره عمله، أي سحر عجيب أصاب هذه الشهادات، أي قوة خارقة تحركها وفق هواها.

في لحظة خطر بباله أن يُبلغ الشرطة، ويُخبرهم عن سرقة شهاداته وأنها بحوزته، لكنه تراجع عن ذلك بسرعة عندما فكر في المرأة المسكينة، وما سيحل بها وبأبنائها، فقد تراءت له الشرطة وهو ينظر في الأفق المظلم أنها أمسكت بغريب وتأخذه من مسكنه إلى مخفرها، وهو يطلب من والديه أن يطردا الخادمة، لأنها هي التي تسببت له في ذلك، ثم رآها وهي تبحث من بيت لآخر عن يقبل بها خادمة عندهم، ثم تراءت له تتسول المارة في الشارع بعدما لم تجد عملا، ثم تخيلها تدعو عليه وقد بللت صدرها بالدموع لأنه تسبب لها في فقدان عملها، ثم تصور ولديها وقد أدركهما الموت على حجرها ونار الغضب

اشتعلت في عينيها حقدا عليه. انتفض وائل من مكانه، هز رأسه ليُزيح كل هذه الأفكار المتشائمة من ذهنه، لن أخبر الشرطة، وسأجد مخرجا لما أنا فيه، ولن أضحى بالمرأة المسكينة في سبيل سعادتي مهما كلفني من ثمن، وهل سيكلفني أكثر من ضياع منصبي، فليكن في سبيل حق الضعفاء إذن، في سبيل المرأة المسكينة وأولادها.

وصل وائل إلى هذا الحد من التفكير فإذا به يلمح تشكل شيء غريب أمامه، ظل وجسم لم تبرز معالمه بعد، انتفض قلبه لبرهة وهو يرمقه بنظرة متفحصة قبل أن يخمن أن هذا الشيء لن يكون سوى صديقه الجني، الطفل الصغير، هدا روعه بعدما اكتمل الطفل الذي أنقذه من حادثة سير من تشكله.

- صديقي العزيز، مرحا مرحا، اشتقت إليك، خلناك لن تعود لزيارتي بعدما غبت عني يوم أمس واليوم أيضا.

قالها وائل وهو يقترب من هوميروش وقد أشرق وجهه ولمعت عيناه لرؤيته، أجابه مستبشرا.

- دعنا من هذا الآن، لدي أخبار سارة لك، ستشكرني كثيرا عند سماعك لها.

جحظت عينا وائل وقد ظهر الانبهار جليا على ملامحه وهو يُرعي السمع ويُدقق النظر منتظرا إفصاح هوميروش عن الخبر السار.

- شهادتك، أعرف مكان وجودها الآن.

تراجع وائل برأسه إلى الخلف، وقد ظهر الإحباط والفتور على وجهه، تموهت بسمه ببعض التمعّر على ملامحه، وانطفأ لمعان عينيه عندما تذكر الوضع الذي ترك فوزية عليه، ثم تمتم بجفون مرتخية وملامح كسولة: "عرفت مكانها أنا أيضا، وليتني لم أعرف".
لجم الاستغراب هو ميروش وأحاطه من كل جانب، فلا يدري هل يستغرب من الوسيلة التي عرف بها وائل مكان شهاداته، أم يستغرب من تمنيه لو لم يعرف مكانها بعدما كانت كل أمانيه الحصول عليها، قال والاستغراب لم يفارقه بعد:

- كنتُ أظن أن الجن مع المواهب الخارقة التي أُعطيت لهم أسرع في إيصال الأخبار من الإنس، وإذا بي أتفاجأ الآن أن الإنس أسرع من الجن في ذلك، أخبرني ما قصة كلامك؟

حكى له وائل عن كل الأحداث التي حدثت معه اليوم، وهو ميروش مستمع إليه في إنصات، وواضع يده الطفولية بأصابعها الخمسة ذات المخالب الطويلة على خده مُستغرقا في التركيز، وما أن انتهى من حكيه حتى بادر ليسأل هو ميروش عن كيفية اطلاعه على تلك الشهادات هو أيضا.

سرد هو ميروش بدوره كل ما حدث معه منذ يوم أمس، وأخبر وائل أن الذي كاد يقتله بسيارته هو غريب نفسه، وهو الذي يملك شهادات وائل، وأخبره بأنه أراد اختطاف الشهادات فتراجع عن ذلك، وحدثه

عما وقع في عالمهم، وأنه عندما قصد والده ليخبره بالكذبة التي اخترعها، لم يُصدقه وشك في أنه زار عالم الإنس مرة أخرى، فأخذه والده معه إلى أحد مَنْ يُحفظون القرآن من شيوخ الجن، فأبقاه معه يوماً وليلة، قبل أن يدَّعي هوميروش أن النصب والإجهاد قد نال منه، فسمح له بالمغادرة، وقد جاء إلى وائل مباشرة بعدما غادر دور تحفيظ القرآن الخاص بالجن.

استمر الصمت بين وائل وهوميروش لدقائق عدة بعدما خبر كل واحد منهما ما حدث مع الآخر، وبعدها اتضحت الرؤية لهما، بعدها استغرق كل منهما محاولاً إيجاد الحل الذي يُمكن به استرجاع الشهادات دون الاضرار بالخادمة فوزية، وما هي إلا لحظات حتى لمعت في رأس هوميروش فكرة جنية بث بها لوائل مباشرة، فأسرته الفكرة وأسرته واستبشر بها وهلت ملامحه طرباً لها، وأزمعاً تنفيذها في التو واللحظة، فلا مجال لإضاعة الوقت بعد الآن.

(19)

في ساعة متأخرة من نفس الليلة في فيلا أهل غريب، كانت تنتظره هناك أحداث لم تكن بحسبانه، كان غريب مستندا على فراشه، جالسا إلى هاتفه كعادته مستغرقا في محدثاته عبر مواقع التواصل الاجتماعي مع خمس فتيات، فهذه يعدها بالزواج، وتلك يرسل لها صوراً لسيارته الجديدة، وفيلا أهله الفخمة، وغرفته الأنيقة، وهذه ترسل له صورها وفكه السفلي متدل ببلاهة من جمالها وحسن اتساق ملامحها وجسدها، وتلك تعتب عليه بدلال ولطف لتأخره في الرد على رسائلها، وأخرى يضرب معها موعدا للقاء بها يوم غد، لم تكن الفتيات قد أعجبن بغريب لوسامته، فما الذي سيعجبهن في قصير القامة منتفخ الكرش ذو الملامح غير المحببة، ما كان يجذبهن إليه هو طمعهن في الاستمتاع بماله، وركوب سيارته الفاخرة وهن يضحكن ويغنين في شوارع وجدة، أو ركوبهن خلفه على دراجته النارية وهن ممسكات به من الخلف وشعرهن متدل إلى الوراء في سعادة وهمية، سعادة من يراها في المال والمركب والسياحة فقط.

لم يكن غريب قد انتهى من محادثاته عندما سمع طرقات على باب غرفته، فمن هذا الذي يريده في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، هل أبوه، أمه، أم أحد إخوته، ولم لا يؤجلون ما يبتغونه حتى الصباح، أو إلى الزوال بما أنه لا يستيقظ إلا بعد أن تُعلن الشمس توسطها كبد السماء بقيظ حرّها.

نهض غريب من فراشه نحو باب الغرفة بتثاقل وتبرم، مد يده إلى مقبض الباب، أداره وفتح الباب، وإذا بالطارق فوزية، الخادمة فوزية، وفي يدها الشهادات التي أمرها غريب بإحراقها، ارتاب غريب عند رؤيتها وبرز على وجهه الحيرة، بل الخوف، خاف من هذا الموقف الذي جمع بينه وبين فوزية في منتصف ليلٍ بعد نيام الجميع، لم يحصل معه في كل سنوات عملها، أن تكون الخادمة واقفة إلى باب غرفته في ساعة متأخرة كهذه، ما الذي سيحصل لو استيقظ والده فوجدها معه هنا، طبعاً ليس هناك شك سيشك فيه إلى ما يدور في رأسه الآن، وبشيء من الغضب والحزم واجهها قائلاً:

– ما الذي تريدينه، احتفظي بما تودين قوله إلى الغد.

قالت بنبرة اختلطت فيها الحزن والجدية والصرامة:

– هناك أمر مهم أريد أن أخبرك به، لم أستطع النوم هذه الليلة، بسبب أنني لم أخبرك كل الحقيقة عندما سألتني اليوم عن الطارق، لن يهدأ

لي بال ولن ينسدل لي جفن حتى أخبرك بالأمر، وبعدها سأكون متأكدة من أن النوم سيزورني.

- حسنا، أخبريني بسرعة ماذا هناك؟

قالت وهي تنظر إلى الوثائق التي بين يديها بثبات كأنها تقرأ منها ما تقول:

- عندما هممتُ بحرق هذه الشهادات سمعت متصلا على الباب، فتراجعت عن حرقها في اللحظة الأخيرة، وها أنت ترى أن جزءا منها كان قد بدأ في الاحتراق، والطارق لم يكن غير وائل صاحب هذه الشهادات، جاء يطلب شهادته بعدما أخبره أحد أصدقائه من الجن أنها توجد بهذه الفيلا - كما قال لي والعهدة عليه -، طلب مني أن أعطيها له وإلا سيؤذيني صديقه الجني، لكنني أبيت، لذلك عندما سألتني لم أستطع أن أخبرك بالحقيقة فقد كنت خائفة جدا، خائفة على نفسي وعلى أولادي، أخاف أن يؤذي أحدهما أو أن يختطفه مني، سامحني يا غريب لأنني لم أخبرك بالحقيقة.

وراحت تبكي وتنتحب وهو يسكتها خشية أن يسمعها من في الدار، وعيناه تختلسان النظر إلى الردهة التي خلفها، ثم تعاودان النظر إليها بعين الريبة والشك، ثم قال بعد أن سكنت:

- كنت أعلم أن الذي تحدثت إليه هو وائل، فقد رأيته معك وعرفته، لكن اعلمي أن قصتك هذه لم أصدقها، فلست غيبا حتى أصدق مثل

هذه الأساطير البلهاء، ولست طفلاً صغيراً لا ينام حتى يسمع خرافاتكم البالية هذه، لستُ غرّاً سانجاً يا سيدة، على أيّ، ناوليني هذه الشهادات، واخرجي أنت من هذا الأمر كله، فقد كنت مخطأً عندما أشركتك فيما يخصني.

مدت يدها وهي تناوله الشهادات، وقد أحست بارتياح نفسي، وظهرت على ملامحها بسمةٌ لم ينتبه لها غريب، بسمةٌ من انتهى من القيام بعمله على أكمل وجه، بسمةٌ انتصار وترقب.

انصرفت فوزية بعدما أخذ غريب الشهادات منها، وضعها على مكتبه ثم عاد إلى محادثاته، لكنه لم يعد إليها بنفس النَّفس الذي كان عليه قبل قدوم الخادمة فوزية، فقد وجد نفسه يكاتبهن لكن عقله مشوش، يفكر فيما قالت الخادمة، نعم لم يُصدقها، وهل يُصدّق مثل هذا الكلام التافه، لكن لماذا اختلقت مثل هذا الكلام، وائل رأه معها، هل هو من أخبرها بأن تكذب هذه الكذبة؟ وأين تعرف وائل من الأصل؟ وأين يعرف وائل أن شهاداته عنده؟ أيمن أن يكون كلامها صادقا، هز رأسه كأنه يتخلص من هذه الفكرة الأخيرة، فلا يمكن أن يتقبلها في عقله.

"من سارة هذه يا غريب"، "أنا لست ابتسام، إذن اعترف من هذه التي تتحدث معها يا غريب"، عاد غريب إلى نفسه بعدما كان في إجماله فوجد أنه قد كتب عن طريق الخطأ، محادثات إلى غير التي

يريد أن يكتب لها، فهو يكتب إلى ابتسام لكن يرسلها إلى سناء، وينادي سارة باسم عواطف.

أغلق غريب كل مواقع التواصل الاجتماعي، وخمن أنه غدا سيعتذر منهن، فالنوم غلبه ولم يشعر بما يكتبه لهن، هكذا خمن، ثم عاد إلى تفكيره، لكن هذه المرة فكر في تمزيق الشهادات والتخلص منها إلى الأبد.

اتجه إلى درج مكتبه حيث الشهادات وهو عازم في أنه على تمزيق كل شهادة إلى قطع صغيرة جدا، وما إن خطى خطوتين ناحيته، حتى وجد مصباح الحجرة قد انطفأ وأظلم كل شيء أمامه، ارتعب غريب في مكانه، وقد تسمرت كل جوارحه وتجمدت حركته، و صدره مع بطنه يصعد ويهبط بلا انتظام، ثم خمن أن يكون الكهرباء قد انقطع لعطب ما، لكن فجأة عاد الضوء إلى الحجرة وبدد الظلام، أكمل حينئذ خطواته، ومد يده إلى الدرج لاستخراج الشهادات، وما أن كادت يده تلمسها حتى أظلمت الحجرة مرة أخرى في وجهه، خفق قلبه أكثر من المرة الأولى، كادت تهب منه صرخة مدوية، لولا أن فكر في سخرية أهله منه ونعته بالجبن والخوف من مجرد انقطاع الكهرباء، عاد بسرعة إلى فراشه واختفى في ملاءته التي أدارها عليه كالمرعوب، وفجأة سمع صوتا خشنا مدويا يتردد صداه في جدران الغرفة يقول: "غريب أعد الشهادات إلى صاحبها وإلا قتلتك تك تك تك كك"، "غريب إذا مزقت الشهادات سوف أذهب بعقلك لك لك لك".

وبصوت متكسر ومختق ومرتعد ومذعور صاح في فراغ الحجرة وهو يقضم طرف وسادته حتى لا يسمع أهله صوته الخائف.

- أأأأأأع، من أنت؟ من يلعب معي هذه اللعبة السخيفة؟

وفجأة سكن الصوت وعاد الضوء، وبعودته رأى أمامه ما لم يكن يحسب له حسابا.

وجد أمامه مباشرة مخلوقا غريبا له ملامح شبه بشرية، شفتاه حادثان كأنه لا يملكها حقيقة، أنيابه حادة كأنياب مصاصي الدماء، أنفه بارزة، وأذنان طويلتان مذبذبتان، له قرني الجدي، ملامحه مخيفة، ملامح وجه منفرة ومتغضنة، جسده شفاف يمكن أن ترى ما وراءه، يحمل جناحين على ظهره، حدّق في غريب بوجهه المخيف وهو يبتسم له ابتسامة ساخرة.

توقفت كل شعيرات رأس غريب كقطّ فرعٍ من كلب، بل أدهى من ذلك، غامت الدنيا في عينيه، شحب وجهه في ثانية، وتوترت أعصابه، أحس برأسه قد اشتعل شيئا في تلك البرهة من الزمن، شعر بجسده يرتجف، ثار عليه قلبه فشرع يذق ناقوس الخطر بقوة ويكاد يتحرر من صدره، ارتعشت أوصاله، هبت قطرات البول تبلل ثيابه، أراد أن يصرخ مرة أخرى فرمى الوسادة من فمه في ذعر، فخرجت منه صرخة مرعبة تكاد تجزم أنها أرعبت الطفل الجني نفسه، فلم يتحمل غريب كثيرا إلا وقد فقد وعيه وغاب في غيبوبته التي ستأخذه

إلى كوابيسه وأحلامه المرعبة التي لن تنقذه منه غيبوبة أخرى، لأن الكوابيس في الأحلام لا يمكن التخلص منها بفقدان وعي آخر.

في هذه الأثناء كانت فوزية التي تضم إليها بقوة ابنيها الصغيرين النائمين بجانبها، هي الوحيدة التي تسمع صرخات غريب، فلم يسمع بصرخاته غيرها، لأنها كانت الوحيدة المستيقظة، وقد تأكدت مما أخبرها به وائل في أول هذه الليلة عبر اتصال هاتفي، أخبرها أنه وضع خطة لاسترجاع شهاداته وأن من بين أبطال هذه الخطة صديقه الجني، لكنها لم تصدق وجوده في البداية، وامتثلت طلبه عن غير اقتناع منها، فأخبرت غريب بما طلب منها وائل أن تخبره به، ولما سمعت صراخ غريب تأكدت من صحة كلامه، فقد كان الجني معهم في البيت يُرعب غريب ويُطفئ الضوء عليه برجله، وهو يسبح في هواء الحجرة.

(20)

اليوم الخامس

في اليوم التالي، وقد كان يوم الإثنين، اتصل جمال بوائل يخبره أنهم شرعوا اليوم صباحا ولوج قاعة التكوين في المركز، فلم يكن وائل ليحفل بذلك، فهو لا يعتبر نفسه منهم، بل جزء غريب عنهم، والحقيقة أن انشغال باله بما حصل ليلة أمس هي التي جعلته لا يهتم بدخول الأساتذة مركز التكوين من عدمه، فعندما أنهى هوميروش عمله ليلة أمس مع غريب، عاد إلى وائل وقص عليه كل ما وقع في تلك الليلة، ورغم إشفاق وائل على غريب، فإنه لم يتمالك نفسه من الضحك وهوميروش يحدثه عن غريب الذي سخر بداية من خبر فوزية، ثم دخل الرعب قلبه عندما انصرفت، وحدثه عن محادثاته مع الفتيات اللاتي خلط بينهن من شدة خوفه، ثم فزعه من انقطاع الكهرباء المرة الأولى والثانية، وكذا الكلمة التي استعملها هوميروش: "غريب أعد الشهادات لصاحبها وإلا قتلتك"، وارتجاف غريب منها حتى كاد قلبه يقف عن النبض، وأخيرا عندما عاد الضوء وظهر هوميروش أمامه بصورته الحقيقية، مما أدى بغريب إلى توقف كل

شعيرات رأسه وارتجاف جسده والصرخة التي خرجت منه مدوية،
ثم فقدانه للوعي.

كان وائل يستمع إلى هوميروش ويشد بطنه من شدة الضحك، لكن
عندما وصل إلى الخبر الأخير وهو فقدان غريب لوعيه، أحس وائل
بشفقة صادقة على غريب، وكأنه ندم على هذه الخطة التي خططا
لها، وأنداك قال له هوميروش وقد بدا عليه الحزن والتأسف:

- إن هذا لا يجوز في شرعنا نحن الجن، وأنا أعلم أنني مذنب في ذلك،
فأسأل الله أن يغفر لي.

- نحن أيضا لا يجوز عندنا ذلك، فإسلامنا واحد وشرائعه واحدة،
فكما قلت نسأل الله أن يعفو عنا.

لم يُخرج وائل من أفكاره الشاردة إلا صوت هاتفه يرن، التفت إلى
رقم المتصل، فوجده رقما مجهولا لا يعرفه.

- السلام عليكم.

- عليكم السلام، هذا وائل؟

- نعم أنا وائل، من معي؟

- اسمع وائل، أنا غريب أخذت رقمك من الخادمة فوزية، أريد أن
أعيد لك شهادتك، وهذا تفضل مني فقط، فشهادتك أنا من عثرت

عليها، كان بإمكانني إتلافها لكن أبقيتها عندي حتى أعثر على صاحبها، والآن يمكنك أن تأتي إلى الفيلا حالا لتأخذها.

انقطع الاتصال من الجانب الآخر، أما وائل فكاد يطير فرحاً، أخذه السرور والفرح يقز في أرجاء الحجرة، وهو يهتف "الحمد لله لك يا رب"، "الحمد لله"، ثم هدأ من روعه حتى لا يسمع جيرانه ضجيجهم هذا، وهم الذين لم يعهدوا منه إلا احترام الجار وتوقيره، ففي بداية الأمر كانوا رافضين لصاحب المنزل بأن يستأجر منزله لأعزب، فقد سبق لهم أن اشتكوا ممن سبقه، لخبث تصرفاته، إذ كان يُدخل معه إلى المنزل في كل مرة فتاة مختلفة، وفي كل مرة يدعي فيها أنها أخته أو ابنة عمه أو ابنة خالته، وكأنه لا حرج في الخلوة بينات العم والعمة والخال والخاله، لكن مع وائل، الأمر كان مختلفاً تماماً، فلم يروا منه في هذه الأيام القليلة إلا الخير، يروونه في كل وقت آذان يخرج للصلاة ويعود إليها في وقار، وبصره أرضاً لا يرفعه في وجه فتاة أو امرأة، بل يزوي وجهه في طريقه حياءً وخجلاً، وكان يلعب صبيانهم، ويلقي التحية على رجالهم وشيوخهم، فلم يُربهم شيء من تصرفاته، مما جعل جيرانه يتقربون منه، ويحضرون له أحياناً مع أولادهم بعض المأكولات التي يقمن بإعدادها بأيديهن.

في هذه الأثناء كان وائل قد غير ثيابه واستعد للخروج لاستعادة شهاداته، خرج إلى الشارع ومع مرور أول سيارة أجرة استوقفها، طالباً من صاحبها التوجه مباشرة إلى العنوان الذي حدده له، بعد أقل

من ساعة من اتصال غريب، كان وائل واقفا بجوار الباب الخارجي للفيلا، اتصل هاتفيا كما فعل في المرة السابقة، وما هي إلا دقيقة حتى وجد الخطوات تقترب لفتح الباب.

فُتح الباب، فوجد أمامه فوزية وقد أشرق وجهها وتهلل بابتسامة لم يراها على وجهها من قبل، وأحس بقلبها يرقص سرورا كقرود حصل على أكلة الموز التي يحبها، وفجأة بعد أن تأملته للحظات وهي باسمه في وجهه بصدق، تموهت بسمتها تلك ببعض التمعر، فربما تذكرت صاحبه الجني، فأفزعاها أن يكون الواقف أمامها مصاحبا للجن، وقد أدرك وائل بنباهته لذلك، فطمأنها قائلاً:

- سيدتي أحب أن أرى تلك البسمة على وجهك، لا داعي لإطفائها، فالأمر الذي تفكرين فيه لن يحصل ثانية، واعتبريه من الأحلام المزعجة التي تأتي مرة في العمر.

نظرت إليه بغرابة ولم تقل شيئاً، لكن عادت لها بسمتها عندما تذكرت أنها كانت ممن ساعدت وائل على استرجاع شهاداته، فقد طلب منها غريب أن تعطيه رقم هاتفه ليتصل به ويطلب منه الحضور لأخذ شهادته، وفرحت كذلك لأنها لن تفقد عملها، رغم تلك المساعدة الجنونية التي قامت بها، فلوائل فضل عليها، فلا بد من رده ولو بخطوات عبثية، لكنها قد أتت أكلها.

- أنا سعيد جداً أنك مسرورة، وأناي لم أتسبب في فقدانك لعملك.

أومأت برأسها مع ابتسامة ملأت ثغرها، إيماءة لم يفهم منها وائل
أهي إيماءة تفهم، أو شكر، أو إيماءة طلب انتظار عندما وجدها
تنصرف وتغلق وراءها الباب نصف إغلاق.

وماهي إلا لحظات حتى عادت إليه، تخبره أن غريب غير متواجد
بالبيت، وعندما اتصلت به تخبره عن قدوم وائل، أخبرها أن تطلب
منه أن يلتحق به إلى حديقة "لالة عائشة".

— حديقة "لالة عائشة"، ولما ذلك المكان بالضبط، هو أرادني هنا عند
اتصاله بي!!

قالها وائل باستغراب، وقد شاركته الخادمة فوزية في استغرابه هذا،
ولم تزد على كلامها سوى أن قالت بأن هذا ما أخبرها به.

ترك وائل فوزية واقفة بالباب، وقد صمم التوجه إلى هذه الحديقة
مرددا في نفسه المثل الدارج الذي يقول: "اتبع الكذاب حتى الباب
الدار"، لكنه الآن قد تبعه إلى باب الدار ولم يجده هناك، إذن عليه أن
يغير من هذا المثل ويقول: "اتبع الكذاب حتى لحديقة لالة عيشة"،
لكن هل هذه الحديقة يتواجد فيها الكذبة؟ نعم قد يكون ذلك، ألم ير وهو
يمر مرارا من هناك، جلسات حميمة بين شباب وفتيات، أيعقل أن
تكون تلك الجلسات صادقة، لو كانت صادقة لما جلست فتاة بكامل
زينتها إلى شاب وهما يتبادلان أنفاسهما من شدة قرب بعضهما إلى
بعض، لو كانت صادقة لآتى البيت من بابه، لو لم تكن تلك الجلسات

كاذبة لاحتفظت تلك الفتاة بزینتها لزوجها فقط، ولما ظهرت أمام عشيقها هذا بها، فهي كاذبة في مظهرها، وهو كاذب في وعوده لها، ولو كانت صادقة لخصته بزینتها له وحده دون المارة الذين تنهش أعينهم جسدها، ولو كان صادقا لما أثر لها هذه الجلسة التي تحط من قيمتها ومن كرامتها، فحقا الكذب موجود بكل أنواعه في هذه الحديقة، رغم تواجد الصدق بجانبه، إذن فما الذي ينتظره في تلك الحديقة، هل الصدق وبالتالي حصوله على شهادته، أم الكذب الذي ليس له سبيل واحد بل سبل متعددة، على أي فما هي إلا دقائق وسيعلم أي الفرضيتين أصح، فهو الآن على مقربة من هذه الحديقة.

كان وائل يفكر في كل ذلك وهو في سيارة الأجرة، وما هي إلا لحظات حتى وصل إلى المكان الموعد، ترحل وائل من السيارة بعدما دفع الأجرة لصاحبها، خطا خطوتين ناحية الحديقة، وفجأة وثب متمسرا في مكانه، فقد تذكر أنه لا يعرف غريب، لم يره من قبل، كيف يمكن التعرف عليه، أيمن أن يكون الآن في انتظاره بمعطف طويل وقبعة رعاة البقر ونظرات سوداء وبجانبه مسدسين، كما تُظهر ذلك بعض الأفلام؟ أكمل وائل خطواته نحو الحديقة وبصره يجول في كل أنحائها، باحثا عن أي إشارة يقربه من هدفه، أو ربما يرى شهادته في يد أحدهم فيعرف أنه هو المنتظر.

وذلك ما حدث، فما أن دنا من الحديقة حتى ظهر له شاب وصديقه، يجلسان على أحد المقاعد الخشبية للحديقة، يحمل أحدهما في يده

أوراقا على شكل شهادات، وكان الشخصان ينظران إليه ويبتسمان، فأدرك أن أحدهما غريب، اقترب منهما وتفحص الممسك بالشهادات، ثم ألقى التحية، وردها الممسك بالشهادات عليه، ثم أردف:

- ما بك جافل هكذا يا وائل، لا تقلق أنا غريب وهذا صديقي كمال.

- مرحبا، تشرفت بكما.

لم ينتظر غريب كثيرا إلا وقد باغت وائل بكلام ساخر.

- ربما تريد شهادتك، أليس كذلك؟

- ذلك ما أخبرتني به أنت، لكن لا أعلم كيف حصلت عليها، فقد سُرقت من منزلي.

- تلك قصة طويلة لا داعي لذكرها، لكن اعلم أنني لست بسارق، ولم أسرقها، ولست مسؤولا عن شهادتك، هي وقعت في يدي فأرغمتني أخلاقي على البحث عن صاحبها، وها أنت الآن أمامي.

كان غريب يُجيب وائل وهو يضغط على كل كلمة تلفظ بها كأنه يعضها ليتيسر عليه ابتلاعها.

- شكرا لك على أخلاقك، هل يمكنك الآن أن تُسلمها لي لو تفضلت.

التفت غريب وكمال إلى بعضهما البعض يتبادلان ابتسامات ساخرة، ثم قال كمال:

- وهل لا يعز عليك ألا تجازي هذا الشخص المتخلق على تحمله
لأتعاب جمة حتى أوصل لك شهادتك، أهكذا تردون الجميل يا وائل؟
قالها بنبرة تحمل من الاستهزاء والسخرية ما جعل وائل يفهم منها
أنهما يساوئانه على تلك الشهادات، فأجاب وائل وهو يحدق بكمال:

- دع صاحب الفضل يُفصح عما يريد ولا شأن لك بذلك.

هنا جاء صوت غريب الغليظ مدافعا عن صديقه.

- إنه صديقي ولا يحق لك أن تتحدث معه بهذه الطريقة، وإلا تراجع
عن إساءة هذا المعروف لك، فهو كما تعلم مجرد معروف، ولا
يفرضه أحد علي.

لم يكن غريب صادقا في عبارته الأخيرة، فقد تذكر وهو يقول جملة
الأخيرة أحداث أمس، مما جعل الجملة الأخيرة تخرج بصوتٍ بالكاد
سمعها وائل، أما وائل فقد أوما برأسه دلالة تفهمه علاقة غريب
بصديقه، وأنه لن يعود لتكرار ما قاله، ثم قال مخفضا نبرة صوته:

- حسنا، كم تطلب مقابل إساءتك لهذه الخدمة؟

التفت غريب برأس مائل إلى وائل الواقف أمامه التفاتة شذراء،
وبنظرة تحط من قيمته، ثم بابتسامة ساخرة مبالغة في السخرية، قال
له وهو يشير بأصبعه نحوه وقد بلغ الغضب منه مبلغه:

- ربما لا تعرفني يا وائل، أنا أستطيع بمالي أن أشتريك أنت وأهلك، فلا ترغمني على الانتقاص منك، ما أريده منك هو أن أشتري منصبك بأي ثمن تريده، تريد سيارة، مال، أطلب ذلك مقابل أن تتخلى عن منصبك، وطبعاً في السنة المقبلة بما أنك طالب مجد ومجتهد، فسيتم قبولك ثانية في المركز، وبالتالي ستحوز على السيارة والمال والمنصب الذي ستتخلى عنه لمدة سنة فقط، ما رأيك، لا تتردد، واعلم أن عرضي لا أعرضه إلا مرة واحدة فقط.

لم يقل وائل شيئاً، لاذ إلى صمته، ولم يكن صمته لأن العرض أغراه، بل لأنه وجد الأمور تتأزم مرة أخرى، طبعاً لن يتخلى عن منصبه ولو بكل ما عند غريب من مال، فهو يحب التدريس، يحب هذه المهنة، ويكفيه منها أجرها الضئيل، لكن لم يفكر يوماً أن يبيع منصبه، ويبيعه لمن؟ لمن يستغل ضعفه الآن، لا، لن يفعلها، وليكن ما يكون، فكل شيء بقضاء وقدر كما يقول دائماً.

- هيا يا وائل اقبل العرض، فإنه عرض مغر جداً، ليثني مكانك، فلن أتردد لثانية واحدة.

أخرجه كمال من جفلاته، لكن وائل كان قد حسم أمره.

- أعتذر، لا يمكن ذلك إطلاقاً، أنا آسف.

لم يكن وائل ينتظر أن يقابل غريب اعتذاره هذا بابتسامة سمجة، بل ما فاجأه أكثر، أن طلب منه أن يعطي 200 درهم لكمال مقابل

شهاداته، والانصراف حالا، ومع اندهاش وائل من تناقضات غريب،
وجد نفسه يفتش في جيبه عن الورقة النقدية، فهي ربما لا تعني شيئاً
لغريب لكنها تعني الكثير لوائل، بل الكثير جداً.

مد وائل الورقة النقدية لكامل، فسلمه غريب الشهادات في الحال،
أمسك بها وائل في لهفة، ثم قصد مباشرة المركز ليضعها هناك.

(21)

لم تكن هدى في المركز الجهوي حيث كانت جالسة مطرقة على أحد مقاعد ساحتها سعيدة سعادة من تشق أول أيامها لمستقبلٍ صنّعه بنفسها، إنما كان الشجن والحزن مزروع في وجهها، وما حزنها على عاشق تخلى عنها أو حبيب أخلف وعده معها، أو حتى موت أخ أو قريب أخذ بلبها، بل كان سوء حالها وجزعها على شاب هو ليس بحبيب ولا صديق ولا شقيق، إنما شاب تخلف عن أول أيام تكوينه، تخلفا لا يد له فيه، فأبكته.

عادت إلى نفسها تعتب عليها وتقرعها وتساؤلها في حزم وشدة، ما بك يا نفس شاردة حزينة؟ ألحب أجهله؟ أعشق وهيام تخفينه عني؟ أهى لوعة مراهقة انطلقت في مغامرات ولهها وهيامها، لو لم أكن أعلم أن قلبك يجهل كل الجهل معنى الصبابة والوجد والوله والهيام، ولو لم أكن عارفة بما بينك وبين ربك لكان اتهمي لك بالمجون والبذاءة والخلاعة والسفالة والعبث والعهر اتهامها دون شفقة ولا رحمة، لكن أعلم أن الذي أحزنك في هذه الساعة لا يُسهر ليلك، ولا يُشغل طول

النهار بالك، ولا يأخذ من وقتك إلا ما تأخذه هذه الساعة التي يرق قلبك على حاله.

رفعت رأسها تمسح الساحة بعينها لعلها تراه، ثم عادت إلى وقفها التي وقفها مع نفسها، غير أنها خفت من حدثها، فقد أحست بعاطفة غريبة متنوعة الألوان مختلفة الأشكال تحيط بقلبها، كأنما هي مزيج من الحب والخوف والأمل والرجاء، فخاطبتها قائلة: فليكن ما تحسین به يا هدى هو شعور الحب، فليكن ذلك، فهل الحب محرم؟ أليس الذي خلق هذه النفوس هو الذي خلق فيها الحب؟ أليس عندما نقف على قبح صدر من إنسان نبغضه، وعندما نقف على جميل صدر من آخر نحبه؟ فلم نرتاح للشعور الأول، وتخفق قلوبنا فزعا من الشعور الثاني؟ أليس هي كلها أحاسيس مصدرها واحد؟ فليكن ما ينبع من هذا القلب الرقيق حبا، فليس حب شهوة أو نزوة، بل حب لأخلاقه، حب لأدبه، حب لصلاحه، فاجتماعها في شخص وائل دفعني لحبه، أو على الأصح لحب أخلاقه وطيبوبته، وما أنا بشقية لينعكس هذا الحب على أفعالي، فلي حدود أرسمها لنفسي، ولن أتخطاها، نعم الإنسان ضعيف، والأضعف في جنسه أنثاه، لكن قسما يا نفس لن أسمح لك باستحالة شعورك هذا إلى تصرفات، فاترك نبتة الحب تنبت في صفاء، ولا تعكري عليها صفوها، حتى إذا ما حان قطافها، وقدر الله أن يجازي طهارتها بربطها بمحبوبها فعل ذلك، وحتى ذلك الحين، اكنمي حبك، وجاهدي نفسك مجاهدة من يحيط مجرى المياه في جدوله

بالتراب من كل جانب حتى لا يزيد تدفقه، فيكفي لك من الحب ما يُزين قلبك وشوقك وحنينك، ولا تزيدي عنه فتسأمي.

وما أن وثبت لولوج قاعة التكوين في حصتها الثانية لهذا المساء، حتى رآته، رأت من أخذ من وقتها ساعتها وهي غائبة عن عالمها في إشفاق على حاله، رأت وائل يتقدم وهو مستبشر مسرور، وكان بسمته الطلقة واستبشاره انتقل إليها، فتغير حزنها إلى فرح، وقلقها إلى طمأنينة، وإشفاقها عليه إلى فرح له، لم تر وائل منذ أيام بهذا الاستبشار، أيعقل أنه استرجع شهاداته، أرجو ذلك.

ثم وكاختبار له، لم تنظر إليه، نظرت إلى غير وجهته، غير مبالية به، تمتحن شعوره نحوها، أيقبل عليها ليُسعدّها بما أسعده، أم يمضي إلى ما جاء من أجله دون أن يُعيرها اهتماما، لكنه نجح في الامتحان، فرأت بطرفي عينيها اقترابه منها، اضطرب قلبها، توردت وجنتاها، وكغير عاداته وبأسلوب لم تألفه منه قال بنبرة يغلب عليها عشق المخمور بالحب:

- السلام على من اتبع الهدى يا بطلّة، استرجعت شهاداتي، وقريبا سأحقق حلمي الثاني.

قالها وائل بشيء من التغزل وهو ينظر إليها نظرات لها معناها، يُحسسها بأنها داخلة في لعبته أو في أحلامه، لكنها لم تجاربه، ألقت عليه لفتة عتب أخذت من نفسه مأخذها، ثم نظرت إليه شذرا محاولة

أن تكون نظرتها لا دلالة لها على الاحتقار أو التبخيس من قيمته، إنما خطوط حمراء تم تجاوزها. لم تبتسم، بل ابتسمت ابتسامة لا تُرى، رفعت بصرها إليه، وبرصانة وصوت رزين قالت باقتضاب:

- الحمد لله، أسعدني استرجاعك لشهادتك.

فهم وائل من وقفها وملامح وجهها أنه تجاوز حده، فالسعادة التي هو فيه أنسته لباقة الكلام، أنسته طريقة كلامه وأسلوبه المعتاد، فعاد إلى رشده، وتخرج من تصرفه، ثم قال معذرا:

- أعتذر منك، لم أقصد شيئا، أنستني فرحتي أن لي حدودا لا يجب تخطيها.

لم تقل شيئا، أطرقت ببصرها مليا، وبحركة خفيفة هزت رأسها دلالة على تفهمها، ثم خاطبها:

- يُسعدني أن تمضي معي لأسلم هذه الشهادات للأستاذة سميرة القائمة على مصلحة استلام الشهادات.

ما إن قال وائل جملته، حتى عاد إليها بشرها، وتهلل وجهها وأشرق، وتسللت إلى نفسها بسمة عذبة، فوجدت قدمها تتحركان مرافقة له.

سلم وائل الشهادات لسميرة، وأخذ مقابلها وصل مفاده إتمامه التسجيل، ويسمح له بالدخول إلى قاعات التكوين.

بعدها دلف كل من هدى ووائل إلى القاعة المخصصة لكل منهما حسب تخصصه للتكوين، وفي قاعة التكوين التقى بصديقه جمال، واستبشر بقدومه، وفرح بعودته بينهم، وبعد انتهاء تلك الحصة ذهبا إلى وسط المدينة يبيت كل منهما للآخر ما حصل لهما في الأيام الماضية، دون أن يشير وائل من قريب أو بعيد إلى قصته مع الطفل الجني، ثم ودع كل واحد منهما الآخر على أمل اللقاء غدا صباحا في منزل وائل، والتوجه معا إلى المركز التربوي.

(22)

اليوم السادس

أصبح الصباح في اليوم التالي على وائل نشطا مرحا، يُنشد أنشودته المفضلة، ينقل بخفة خفة النحلة بين أزهارها، يطوي فراشه هنا، يحضر فطوره هناك، يجهز في غرفته الأخرى ثيابه التي سيخرج بها، وقد شاركته عسافير الصباح نشاطه وهي تعيد خلفه أنشودته وألحانه بزقزقتها، وتطير من نافذة لأخرى طربا بطربه، بل أحس وائل أن الكون كله يشاركه سعادته، فأشعة شمس مشرقة تتراقص خيوطها في مجال غرفته، وأزهار وورود كان قد غرس أغصانها تفتحت وُريقاتها وتجملت باخضرار سيقانها، واحمرار وجهها، كأنها خجلة من تطفلها على سعادته.

لم يكن شيء يدل لوائل أن الأمور ستقلب رأسا على عقب، وأن سعادته ستتحول إلى شقاء، وأن الكون المبتهج ليس إلا لحظة من لحظات إشفاقه عليه، فهو يمنحه هذه البهجة المؤقتة حتى لا تتواصل أحزانه، حتى تفصل بين حزن أمسه، وشقاء يومه الذي ينتظره، فهكذا

هي الحياة، لا تمنحك شيئاً دون مقابل، لكن لله در وائل، لم تمنحه الحياة حتى ما يمكنه أن يعطيه مقابل ذلك المنح.

سمع وائل طرقتا قويا على الباب، فحسبه جمال جاء على مواعده، لكن الطرقات التي يسمعا على الباب مختلفة عن طرقات صديقه، بل مبالغة في الحدة والعنف، استمر الطرق، خفق قلبه خفقا شديدا، واضطربت نار الغضب في وجهه من هذا الطارق المتعجرف الذي لا يُحسن أدبا، ولا يعرف حدودا، ارتفعت نبرة صوته هاتفا بالطارق للكف عن الطرق، فهو على مقربة من الباب لفتحه، ولتهشيم رأس هذا المتطاول عليه.

مد يده إلى مقبض الباب، فتحه، وإذا بثلاثة أشخاص منتصبين أمامه بزي موحد، وعلى مقربة منهم بثلاثة أمتار على إحدى درجات السلم صديقه جمال متأملا وجه وائل.

- الشرطة .. تفضل معنا.

تسمرت عينا وائل على البطاقة التي أخرجها أحدهم، والتي تؤكد هويتهم، ثم ساحت نظراته في المكان قبل أن تستقر على رجال الأمن الثلاثة، نقل بصره إلى جمال، ثم أعادها إليهم، أراد أن يتحدث أن يقول شيئاً، لكن لسانه أجم، وشفتيه ارتعشتا دون أن يعلم سبب ارتعاشهما، لم يكن يستطيع إلا أن يتكلم إلى نفسه، الشرطة! ماذا يريدون مني؟ أي جرم اقترفته في أحلامي؟ أيمن أن يكون احتلامي

ليلا هو ما جاء بهم ليقولوا لي كما قالوا لأحمد مطر في قصيدته: "إن
في بيتك حلما خائنا".

الزوايا الضيقة والأزقة الفارغة وشواطئ البحار، وجنابات
الأنهار، ووسط أشجار الغاب، كلها ملاً بالعشاق، بل بالمجون وحتى
بالزواني والزانيات، أيمن أن يتغافلوا عن كل هؤلاء، ويتتبعوا حلما
طائشا دون قصد أدى إلى احتلام؟ أيكون قد أدى في الواقع إلى حمل
ثم إنجاب؟ ثم بعدها فلاكن أبا لابن غير شرعي!!، أم أنني اقتربت ما
لا أتذكره في يقظتي؟

استرجع وائل شريط ذكرياته ليوم أمس، ثم سحب شريط اليوم
الذي قبله، ثم أمسك بشريط ذكريات الأيام التي قبلها، فلم يجد فيها ما
يُمكن أن يُؤاخذ به، أرجع بصره إلى جمال، حدّق فيه، نَظَرَهُ بغير
النظرة التي ينظرها له دائما، ما الذي يفعله هنا معهم؟ أيكون له دخل
في هذا؟ أيكون قد أوشى بي، ثم تبسم في أعماقه ساخرا من نفسه،
يشي بي على ماذا؟ هل أصبحت مجرما دون أن أدري؟

ولما اطمأن إلى نفسه، واطمأن إلى حسن سيرته، كأنه قد تأكد من
شخصه لتوه، وأن ليس شخصا آخر قد تلبس صورته، كأنه كان يشك
في أن يكون هو وائل، فقال بصوت جهور متحد:

— ماذا هناك؟ ما هذا الإزعاج؟

اقترب أحدهم منه وهو يشد ذراعه أمرا:

- تفضل معنا وستعرف كل شيء.

لم يكن وائل في حالة تسعفه للعناد، أو في وضعية يستطيع بها مجاراتهم، طلب منهم أن يمنحوه لحظات يلبس فيها ثيابه ويطفئ النار التي تُنضج إبريق الشاي، ويأتيهم بعدها في توه، فعلوا، وما هي إلا لحظات حتى خرج يمشي بينهم مشية متبختر، منتصب الرأس، وهو يرمق جمال بنظرات عميقة لم يفهم أحد منهما مغزاها، أما جمال فلم يتحدث ولم يقل شيئاً، فلم يكن منه إلا أن أتبع وائل بنظراته، نظرات شاردة هائلة.

في مخفر الشرطة وأمام مكتب جلدي جلس وائل إلى "الضابط أسامة"، أسامة ضابط شرطة شاب اقترب من العقد الرابع، طويل القامة واسع المنكبين، صدره واسع وبارز، ملامح وجهه صارمة طول الوقت، وكذلك كانت وهو يحدق في وائل بصرامة وجدية، استمرت نظراته إلى وائل صامتا منذ أدخلوه عليه، صمّتا مستفزا، وبعد أن أخذ الصمت حقه اختفى من المكان، فباشر الضابط أسامة في أسئلته الروتينية، عن اسمه واسم والديه، ومسكنه وسكنه، ووائل يجيب باقتضاب عن كل سؤال.

حدّق الضابط في عيني وائل ثم واجهه بهذه القبلة:

أنت متهم بتزوير شهادات طبقا للتهم المشار إليها في الفصول من 352 إلى 358 من القانون الجنائي المغربي، ماذا تقول في ذلك.

بدا وائل في هذه اللحظات كأبله، أو كتلميذ كسول لا يفهم درس أستاذه، ولا يدري هل كلماته خرجت بلغة عربية فصحي أم بلغة صينية، لذلك لم يكن لرد فعله شيء سوى التحديق في الضابط باستفزاز غير مقصود وهو شارد وقد ترك فكه السفلي متدل ببلاهة.

- وائل أبو الفضل، ماذا تقول في التهم المنسوبة إليك؟

أعادها عليه الضابط، وبغباء غير مقصود رد وائل:

- لا أقول شيئا.

ثم عادت نفسه إليه، وكأنه عاد من تمثيلية إلى واقعه، فاستدرك قائلاً:

- هلا شرحتم لي سيدي لم أنا هنا، حتى أفهم جيدا، وبالتالي أستطيع أن أجيبكم عن أسئلتكم.

عاد الضابط برأسه إلى الخلف، وعقد يديه على صدره، وصوب بصره على عيني وائل يرمقه بشدة دون أن ترمش له عين، صمت برهة من الدهر، حتى أحس وائل أن حركة الحياة قد توقفت، وأن الزمان انتهى إلى هذه النقطة، وأنه لم يعد من المخلوقات على هذه البسيطة غيره والجالس أمامه، فأين هي المخلوقات الأخرى لو كانت متواجدة، فلتثبت ذاتها ولتظهر أمامه، أين والداه مما هو فيه؟ أين

إخوته؟ أين صديقه جمال، صديقه؟ لا بل أين جمال، أما الصداقة فسأثبتها أو أنفيها فيما بعد، وأين هدى؟ هل تعلم الآن بمكاني، بحالي، نعم هي بطلتي المستقبلية، وشريكة حياتي إذا قُدِّر لي أن أعيش حياة بعد هذه الحياة التي أعيشها أمام هذا الواجم أمامي.

خرج وائل من شروده وهو يسمع الضابط يخبره عن تهمة.

- تهمة هي أنك وضعت في المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بوجدة شهادات مزورة مساء يوم أمس، من أجل الاستفادة من منصب كأستاذ متدرب، وفعلك هذا جريمة يعاقب عليها القانون حسب ظروف وحالات مختلفة، فقد يؤدي إلى السجن المؤبد كما تنص عليه المادتين 352 و 353 من القانون الجنائي، وقد يُعاقب صاحبها من 10 إلى 20 سنة طبقاً للفصل 354 من نفس القانون، وفي أحسن الحالات يعاقب مرتكبها بالحبس من سنة إلى خمس سنوات مع الغرامة كما تنص على ذلك المادة 358، فهل فهمت الآن يا حضرة الأستاذ، فجريرتك تلك مناقضة للقانون، ومناقضة للأعراف والتقاليد، ومناقضة كذلك للأخلاق والسمت الذي يظهر على محياك، ويمكن أن يكون هو الآخر مزوراً.

ابتلع وائل ريقه بصعوبة، وهو يقول:

- فهمت الآن كل شيء.

- ماذا فهمت؟

شرع وائل يقص على الضابط قصته مع غريب وما جرى بينهما، وما حدث قبل ذلك، استوقفه الضابط وسأله عن أدلته وحججه ليتثبت بها أن غريب متورط معه في الأمر، خصوصا عندما أدرك الضابط من هو غريب هذا، ومن يكون والده، لكن لم يكن مع وائل ما يثبت أن غريب متورط في تزوير الشهادات، فحرك رأسه نافيا أن تكون معه أدلة تثبت صحة قوله، فلم يكن من الضابط أسامة إلا أن قال بنبرة رقيقة كأنها رشوة أو تهديد منه لوائل ليكف عن اقحام غريب في الموضوع:

- لكنك تعلم أن القانون لا يحمي المغفلين يا وائل، فأرجو ألا تقحم غيرك في موضوع يخصك، حتى لا نضطر لفتح ملف آخر وتهمة أخرى قد تكون أنت الخاسر الوحيد فيها، وما أرى إلا ذلك.

فهم وائل مراد الضابط، وأحس بالوزن الذي يزنه غريب، أو والده في المجتمع، فهز رأسه بحركة شاردة دلالة على تفهمه لكلام الضابط، ثم سرح في أفكاره، قبل أن يسمع نداء الضابط أسامة على شرطي الباب يأمره بأخذ وائل إلى سجنه مؤجلا تحقيقه معه إلى وقت لاحق.

في هذه الأثناء كان وائل يجهل تفاصيل الحلقة المفقودة والمجهولة، رغم أنها موجودة في سلسلة الأحداث التي أدت به لاقتياده إلى مخفر الشرطة للتحقيق معه، وترجع تفاصيل هذه الأحداث عندما عزم كمال

وغريب على إحراق الشهادات، لكن صديق غريب أشار عليه بفكرة أخرى وهي تزوير الشهادات وتركها عند كمال للحاجة، فربما يلجؤون إليها إذا اضطرتهم لها مواقف معينة، وعندما واجه غريب تلك الليلة المشؤومة مع الجنى، وبعد استفاقتة من غيبوبته، أخبر كمال بما جرى معه ليلا، وبعد لقائهما في الحديقة، جلب كمال الشهادات المزورة، واتفقا على تسليمها لوائل إذا رفض المساومة على منصبه، وعندما تأكد لهما صحت تخمينهما برفضه للمساومة، منحاه الشهادات المزورة، ولم تنته خطتهم عند هذا الحد، بل تبعاه حتى سلم شهاداته للمركز، وانزويا يراقبانه من زاوية قصية، بعدها اتصلا من خلال رقم مجهول بسميرة يخبرانها أن الشهادات التي سلمها وائل قبل قليل مزورة.

وحتى تتخلص سميرة من هذا العبء أخبرت نائب مدير المركز بما تناهى إليها من أخبار من خلال مجهول، وبعد فحصهما للشهادات جيدا عن طريق خبير، تأكدا من أنها مزورة، فاتصل محمود ليخبر الشرطة بالأمر، فجاءته في حينها لتتأكد من ذلك، وهناك رفع محمود على وائل دعوة بتهمة تزوير شهادات، وفي صباح اليوم الموالي أعطيت التعليمات للقبض على وائل.

(23)

أما عن جمال، فبعد أن عاد إليه وعيه من الصدمة التي أصابته، وذلك أنه عندما جاء على مواعده المحدد مع وائل، وجد سيارة الشرطة أمام شارع المنزل الذي يقطن فيه وائل، ثم وجد ثلاثة عناصر من أمنها واقفة على بابه يطرقونه بعنف، هاله الأمر وأرعبه، فتسمر في مكانه يخمن فيمّ قد يكون وائل ارتكبه ليلاً، هل تم القبض عليه متلبساً بعلاقة غير شرعية في منزله كما كان يصنع من سبقه، لا يمكن، فأخلاق وائل لا تسمح له بذلك، إذن ما ذا يحصل هنا؟ اصطدمت الأفكار بعضها ببعض في رأس جمال فأردته حائراً في مكانه دون حراك، وبعد أن عاد وعيه إليه ندم أشد الندم أنه لم يقف مع صديقه في محنته، فهام على وجهه يسير في الطرقات دون أن يلوي على شيء، ودون أن يدرك إلى أي وجهة تقوده إليها قدماءه، وجد نفسه قد اقترب من المركز التربوي، دخل إلى حصة التكوين وعقله سارح في عالم غير العالم الذي يجلس فيه الآن.

في نفس المركز وفي قاعة أخرى كانت هدى هي الأخرى هائمة في عالم آخر، وقد أحاطت بها الوسوس من كل مكان، واشتد عليها

خناقها، فقد رأت جمال صباحا عندما كانت واقفة مع صاحباتها دون رفقة صديقه وائل، بل الذي جعل قلبها واجف مضرب، هو رأيها لجمال في حالة يرثى لها، فأدركت بقلبها الرقيق أن وائل قد أصابه مكروه، وائل الذي لا يجمعها به سوى اضطراب قلبها عندما تراه، فكثيرا ما تلوم نفسها على هذا الاضطراب، لكنها تعود لتطمئن نفسها بأن لا سلطة لها عليه، وبأن الأمر لا يتجاوز غير الاضطراب.

أزمعت هدى أن تسأل جمال عن وائل عند خروجها من الحصة التكوينية، فقد عقل الحياء لسانها عندما رآته صباحا، بل ولم تفكر في ذلك بتاتا لما دنا ورائته على حالته تلك.

دق الجرس وخرج المتدربون من حصصهم، إلا جمال وهدى فكانا في حصتيهما بجسديهما فقط دون عقليهما، فخرجت الأجساد لتلتقي مرة أخرى بالأرواح والعقول، ولما عاد عقل هدى إليها اضطرت إلى المغادرة مرة أخرى بعد ثورة القلب عليه، وذلك عندما كانت تبحث عن جمال في الساحة لتسأله عن وائل، وما أن مسحت الساحة بعينها مسحة واحدة أو مسحتين إلا وقد برز لها من بعيد، حاولت أن تكون أكثر هدوء وأوسع انضباطا، اتجهت إليه، استوقفته، سمع اسمه يتردد بصوت أنثوي التفت خلفه فعرفها، ألقى التحية، وبدون مقدمات سألته عن وائل بدعوى أنه لم يحضر اليوم إلى حصته التكوينية.

أطرق جمال رأسه أرضاً، وقد بدا التأثر بارزاً على وجهه، شحبت ملامحه، صام برهة واجماً حتى خفق قلب هدى ومطت شفيتها وقد ظهر التوتر بشدة على ملامحها، أدركت أن قلبها لم يُخطئ، وأن وائل قد حلت به نائبة، وبعد صمته أخبرها بخبره وما حل به وما رآه، اعترت جسدها رجفة واجتمعت الدموع في محجريهما وهي غير مصدقة للخبر، اندفعت في عتب ولوم على جمال لموقفه الذي وقفه.

– ألم يكن حري بك أن تتصرف من أجل صديقك، كيف سمحت لنفسك بالاكْتفاء بالموقف الذي وقفته.

لم يجبها، بل لم يجد ما يجيبها به، اكتفى بصمته وإطراق رأسه وسكونه، فلم يرفع طرفه إليها خجلاً، وعندما أحس بأن الصمت قد أخذ حقه، قال وهو ينصرف:

– غدا إن شاء الله سأزوره صباحاً، إذا أحببتِ أن أجدكِ أو تجديني هناك.

هزت رأسها ببطء دلالة الموافقة، وتمتمت بكلمة المشيئة، وهي متمسرة في مكانها دون حراك، وقد سبحت في أفكارها، ترثي أمر وائل، وتُشفق على حاله، وتستغرب للنائبات التي تتقاذفه وتلعب به لعب الأطفال بكرتهم دون شفقة منهم عليها، دون أن يُحسوا بألمها، لكن هل الكرة تُحس؟ إذا لم تكن مجرد كرة قدم لا تُحس فوائل يُحس،

وائل من لحم ودم، من جسم وروح، لابد وأن تكون هذه الحوادث
أثرت عليه، لا بد وأن تتابع المصائب جرحته في نفسه.

استرسلت هدى في أفكارها، وهي كذلك حتى وجدت صويحباتها
يحركنها من كتفها، ويسألنها ما بال وثبتها هذه، ابتسمت في وجوههن
ابتسامة مرغمة، وطمأنتهن بأنها على ما يرام، ثم مضت معهن في
سبيلهن.

(24)

فُتِحَ باب السجن، أُدخِلَ وائل داخلها، وأغلقت خلفه، في سجنه، أو في مسكنه الجديد عند الوهلة الأولى لم ير شيئاً، وبعد هنيهة ألقى بصره في كل أنحائها الضيقة فترأى له شبحين جالسين يضمن إليهما ركبتيهما وهما يحدقان في وجهه، ارتعب للمرة الأولى قبل أن تباشر ملامحهما البروز، فهما إنسانان لا شبهان كما تخيلهما، ورغم قبح ملامحهما الشريرة التي تُظهر سوء إنسانيتهما، إلا أنهما أريح لنفسه من الأشباح التي تخيلها منذ برهة، فأن تكون إنساناً شريراً خير من أن تكون شبها لا يُعلم له طبع أو مزاج.

دار وائل برأسه في أرجاء الزنزانة شبه المظلمة يحاول تفقدها، فهي زنزانة مظلمة ضيقة، رائحتها باختلاط أنفاس زوارها وعرقهم ورطوبة جوها أصبحت كريهة، بل خانقة، جدرانها رثة، في نفس الجدار الذي يتواجد به باب الزنزانة الحديدي، يوجد في جزئه العلوي نافذة صغيرة مسيجة ومطوقة بقضبان حديدية، في زاوية من زوايا هذا السجن سريران أحدهما فوق الآخر، تعلقت عينا وائل بالسريرين، وحدث نفسه عن سوء ضيافتهم له، هل هذه هي الضيافة التي تليق

به؟ أين سريره هو أيضا؟ فلا ضير إذا انتظر الطعام والشراب في الأيام القادمة فلم يأت، فإذا كان أهل مسكنٍ لا يهتمون بمكان نوم ضيفهم، فكيف لهم بالأحرى أن يهتموا بمأكله ومشربه.

وقف وائل يكتشف هذا العالم اكتشاف الرائد لكوكب تنعدم فيه أسباب الحياة، وقد أنساه ذهوله من سوء مُقامه الجديد سبب تواجده به، فلبث مليا وقفته التي وقفها، حتى سمع أحد رفقاء سجنه يطلب منه، بل يأمره بالجلوس، التفت إليه التفاتة خاطفة وكأنه اكتشف لتوه وجود شخص في موضعه الذي هو فيه، بل إن هذا الشخص في مقدوره النطق والتحدث، وربما يكون صاحبه الجالس بجانبه هو الآخر له قدرات خارقة لم يكشف عنها بعد.

لم يقل وائل شيئا، وكضيف متبلد في ضيافة غيره، بحث في أرجاء الأرض عن مكان للجلوس كأنه يبحث عن مقعد يشكو البطالة، فجلس في أقصى موضع منهما، وكل المواضع دانية فلا موضع قصي في هذا السجن الضيق.

استمر صمتُ الزنزانة صمتَ القبور، وهل الأموات يتفوهون؟ ينطقون؟ ما الفرق بين موتى القبور وموتى السجون، غير أن الأولين لا يتنفسون، والآخرين يتنفسون، بل يزفرون وينهدون، وما أدراني أن موتى القبور يتنفسون أيضا، كان وائل من شدة صدمته كأنه أحس بالخبل، كأنه دخل قبرا لن يخرج منه أبدا، فلم لا يكون قبرا إذا كانت

أقصى مدة سجنية لتهمة تزوير الشهادات هي المؤبد، أليس كلاهما سيخرجان مما هما فيه بنفخة الحشر، أليس الميت لا يفصله لتخلصه من ضيق القبور إلى نفخة الصور، فكذا المحكوم بالمؤبد، لا يفصله عن ذلك إلا ذلك، أيعقل أن أحكم بالمؤبد؟ لم لا تكون 20 سنة أو 10 سنوات أو خمس أو سنة فقط؟ استهزأ من نفسه وسخر منها، وما الذي اقترفته يدي، وما الجرم الذي أقدمتُ عليه حتى أدخل هذا المكان القدر من أساسه، أنا مظلوم، والمظلوم يُنتصر له لا عليه، لكن أنا مغفل والمُغفل يستحق ما يأتيه من صنوف الويل والشر، فكيف أقنع نفسي بما أقنعتها به دائماً فأريحها، وذلك أن لا حيلة لي مع قضاء وقدر، قَدَّرَ قُدِّرَ علي حتى قبل أن تتنفس رثتي هواء هذا الكون، فما الذي سأغيره والقدر قد قال كلمته، والأمر قد تم.

لم يقتنع وائل بفكرته الأخيرة، فعاد لدكِّها فكرة فكرة، فالإيمان بقضاء وقدر لا ينافيه الأخذ بالأسباب، فلو كان لي من الآناة والروية نصيب، وتمهلتُ حتى أفحص الشهادات أو أدفعها إلى من يقوم بذلك، ما ندبت حظي الذي أندبه الآن، فكل تلك العلامات كانت تقول لك يا وائل إن في الأمر خدعة، عدم تواجد غريب في بيته في الموعد المحدد خدعة، تواجده مع صديقه خدعة، تسليمه الشهادات لي مباشرة بعد رفضي لعرضه المُغري خدعة، ألا تدل هذه الأحداث رغم بساطتها أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن.

أفاق وائل من أفكاره الشاردة على سؤال أحد رفيقي سجنه، وكان غير الذي أمره بالجلوس.

- ما اسمك يا فتى، هذا الوجه ليس وجه هذا المكان.

ابتسم وائل في داخله وقد وافقه في قرارات نفسه، أن هذا المكان حقاً لا يستحقه مثله، لكن يستحقه أمثالهما، ثم عاد لتفريعها لسوء ظنها بهما، فربما هما أيضاً وقع عليهما ظلم مثل الذي وقع عليه، رغم أن ملامحهما تدل على خلاف ذلك، فما أدراني أن الزمان كان قاسياً مع وجهيهما لكنه لم يتسلل لئسود قلوبيهما، فكم من قبيح الوجه طيب القلب، أوليس أحدهما أراح قدماي بأن طلب مني الجلوس، والآخر ابتغى تحريري بسؤاله من الصمت الذي طوقني.

- وائل.

لم يزد على تعريفه باسمه، ابتسم الشخصان لبعضهما البعض ابتسامة من يُقرر أن الجولة الأولى لم تنته بعد، وأنهما لا يرضيان بالفوز الضئيل فضلاً عن الهزيمة، لذا أرادا أن يستخرجا ما في جعبته، فقد أمهلاه ساعة صمت استرد فيها شخصه، وعاد إليه صوابه، وأنس بمكانه، فقال آخر:

- ما تهمتك؟

نظر إليهما وائل نظرة طويلة، ثم أعادها منهما صفراً ولم يقل شيئاً، ولم يُفصح عن شيء، فرغب الرجلان في تغيير أسلوب التواصل،

من "سؤال جواب" إلى "أسلوب الأمثلة"، فقام أحدهما مقتربا من وائل وهو يقول قبل أن يجلس بالقرب منه:

– أتحب أن تسمع تهمتينا نحن الاثنين؟

هز وائل رأسه دلالة الإيجاب دون اكتراث، فأى شيء يمكن أن يفعله المرء في سجنه إذا لم يستمع إلى الحمقى والمغفلين.

قهق الرجلان وهما يبخلقان في بعضهما البعض قهقهة قوية طالت مدتها، قهقهة منتصر على غريمه، ثم أخذت تنخفض وتستكين شيئا فشيئا حتى سكتا، نظر الجالس بجانب وائل إلى صاحبه يستشير فيمن يشرع في الإفصاح عن تهمتها، فرفع الآخر رأسه إليه مشيرا له أن ابدأ.

– أنا اسمي عماد وهذا مراد، أو إن شئت فهو عماد وأنا مراد، لا فرق بيننا، وأما تهمتنا يا عزيزي وائل، فهي كما ستسمعها. في أحد أيام هذا الصيف الذي غادرنا، كنا نسبح في شاطئ "السعيدية"، وكانت هناك شابة في غاية الجمال والأناقة، تخيل معي يا رفيقي أنها تسبح كما ولدتها أمها، طبعاً إذا استثنينا الثوب الرقيق الذي يحيط بنهديها وعورتها الغليظة، فإني لا أراها، بل أراها جسماً عارياً، اقتربتُ سابحاً بمحاذاة منها، لم تعرني اهتمامها، تجرأت عليها طالبا منها أن نسبح معاً، لكنها نظرت لي نظرة احتقار وإهانة، وقالت بوقاحة: "أش هاد الأدب، سير الخانز شكون إعوم معاك".

لا أخفيك يا صديقي أنها أشعلت في قلبي نارا تتأجج، فأقسمت أن أنتقم لنفسي، وأن أضعها في موضع مهين تعرف فيه قدر نفسها، وتفهم جيدا معنى الأدب، فلا يستحق أن يتحدث عن الأدب من لا حظ له منه، اكتفيت بالسباحة لذلك اليوم، ولم يكن لي وقتها أحب نشاط أقوم به من ترقبها وتتبع خطواتها وسكناتها وحركاتها، ولحسن حظي ولسوء حظها أنها تأخرت في الشاطئ حتى مغرب الشمس، ثم بعدها سارت في طريقها بعد أن لبست بعض قطع الأثواب عليها، وكان برفقتي صديقي هذا بسيارة لا تسألنا كيف وصلت إلينا، مررنا بالقرب منها، خفضنا من سرعة السيارة، وفي زقاق من الأزقة وكنتُ جالسا في المقاعد الخلفية للسيارة، ولما كنا بمحاذاة منها فتحت باب السيارة وأدخلتها بالرغم منها وهي تصرخ وتستغيث وتستنجد، لكن هيهات هيهات فقد طار صديقي بالسيارة دون احترام لإشارات المرور حتى وصلنا إلى مسكننا الذي نكتره، ثم تخيل أنت ما الذي سنسويه بها يا صديقي، طبعا اغتصبناها، ورددتُ بعض كرامتي التي جرحتها في الشاطئ، لكن للأسف لم تكن عذراء فلم ترو عطش انتقامي، وبعد أن أخذنا لوعتنا منها، رددنا عليها ثوبها الرقيق الذي كانت تلبسه وطردها خارجا، في نفس الليلة سمعنا طرقا شديدا على الباب، فعلمنا أنها الشرطة، لذا سلمنا أنفسنا، ونحن الآن ننتظر المحاكمة، فما رأيك يا صديقي أليس هذا ظلم؟ فتاة تسبح عارية وتود مني، أنا الشاب الأعزب أن أتماسك نفسي، أن أغض بصري، وتحدث عن الأدب

وهي لا تعرفه، ألم يكن من العدل أن يسجناها معنا هنا حتى نتزوجها نحن الإثنين، فأبي عيب في ذلك.

كان وائل وهو يستمع له يبلع ريقه بين الفينة والأخرى، وقد شحب لون وجهه، وتسمرت عيناه على شفتا الرجل وهو يتحدث، مبهور مندهش مذعور مما يسمعه، متقزز محس بالغثيان مما يتخيله، وكأنه يشاهد فيلما من الأفلام، أو يقرأ رواية من الروايات العاهرة.

- ما بك يا رفيقي قد شحب لونك، هل تخاف أن نغتصبك أنت الآخر؟ لا تخف فنحن لا نغتصب الرجال، بل حتى النساء المحترمات، أما هاته فهي التي أرادت ذلك، وخير شاهد على ذلك أنها لم يُغم عليها، ولم تُظهر مقامة أو امتناع كاف يدل على رفضها، وإلا لتركناها، وأضف إلى ذلك أنها سبق لها وأن قامت بهذه الممارسة، والآن دعنا من هذا وأخبرنا عن تهمتك.

نظر وائل إليه، ثم بعدها إلى صديقه، وكأنه سمع السؤال بلغة لا يفهمها، أو كأنه فهم السؤال ويجهل الإجابة، خطر بباله أن يكذب ويحدثهما بتهمة كبيرة أكبر من تهمتيهما لترتعد لها فرائسهما، حتى يخافا منه على الأقل ويُجنبانه مضايقتهما له، فقال:

- تهمتي تشابه تهمتيكما في تفاصيلها لكنها من جانب آخر، أمس وأنا أتسكع في الشوارع والأزقة الضيقة ليلا، وإذا بي أسمع صوتا أنثويا يستغيث ويستنجد، فلما اتجهت حيث الصوت، وجدت شابا في مثل

عمر كما، يُمسك بفتاة يُقبلها ويعانقها ويحاول أن ينزع عنها لباسها، التفت يمينا وشمال، فلمحت قضيبا حديديا، أخذته فهويت به على رأس الشاب، فألقيته طريح الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة، جاءت الشرطة، أمسكتني والآن أنتظر المحاكمة مثليكما.

نظر الرفيقان إلى بعضهما البعض بتعجب واستغراب وبشيء من الرعب والفرع، فقال أحدهما:

- هل كانت متبرجة في لباسها، سافرة في تأنقها.

- لا، كانت تلبس جلبابا وحجابا.

قالها وائل ببرود، فرد عليه مراد وهو يحاول أن يعطي مبررا لفعل الشاب المفترض الذي حاول اغتصابها.

- إذن ماذا كانت تفعل في مثل ذلك الوقت، في مثل ذلك المكان.

قال وائل يُغلق عليهما كل المنافذ التي حاول أن يدخلها منها ليعطوا الشرعية للشاب المفترض لفعل فعلته.

- علمتُ ساعتها أنها خادمة واضطرتّها ظروف سيدتها التي تعمل عندها إلى الخروج لإحضار ما تريد إحضاره.

التفت الرفيقان إلى بعضهما البعض، ثم أطرقا أرضا، وساد الصمت.

في الليل لما حان وقت النوم لمحا وائل دون أفرشة، فأعطاه أحدهما بعض ما فضل منها عن حاجته، ثم صعد كل منهما إلى سريره، أما

وائل فاختر زاوية من زوايا السجن، قام بتهيئته بالأفرشة التي حصل عليها، ووضع فوقه ملاءة رقيقة وذهب في نوم عميق بعد يوم متعب دون أن ينسى صلاته بوضوء واحد ثم بتيمم.

(25)

في نفس الليلة كان هوميروش الذي فارق وائل ليومين كاملين، بعدما ألزمه والده بمجالسة الشيخ الجني لحفظ آيات من القرآن، بعدها عاد ليتجسد في فناء بيت وائل على صورة الطفل المعروف، تراء له ضوء حجرة نوم وائل مضاءة، فأيقن أنه بداخلها في حاجة من حاجاته، يقرأ كتابا، أو يكتب مقالا، أو يطالع على وجه هاتفه خبرا أو نبأ، فما عرف عنه في مثل هذه الساعة إلا وجوده بحجرتة، لا يدري ما حدث في اليومين الماضيين، لكن لا شك أن المياه عادت إلى مجاريها، وأن غريب بعد تلك الليلة أعاد الأمانة إلى أهلها، وربما يكون وائل في غرفته الآن فرحا مبتهجا، فقد كانت الحياة مع هذا الإنسي الطيب قاسية في الأيام الماضية، وما أحسب تلك الأيام إلا أنها غادرتة إلى حيث لا رجعة، وودعته إلا حيث لا لقاء، وتناحرت معه إلى حيث لا تألف، فلك يا رب الجن والإنس شكرا وحمدا ما جرى على فيه مخلوق، أن جعلتني سببا لسعادة هذا البائس المسكين، وأوقفتني موقف المدافعين عن الحق المحاربين للظلم.

تقدم هوميروش صوب الباب الذي كان مواربا، أطل منه على وائل، فإذا به يجد ما لم يكن يتوقعه، أبصر الغرفة مضاءة لكنها ساكنة بكماء صماء لا أحد فيها، ارتعب هوميروش وفزع خوفا على وائل، ولك أن تتخيل الطفل الجني يفزع ويذعر، تحرك في كل الغرف يُفتش عن وائل فلم يعثر له على أثر، أين يُمكن أن يكون في هذه الساعة وما عهدته فيها إلا في مكانه هذا؟ لم يُطلعي على أن له أصدقاء غير جمال، أيكون عنده، يتسامران في ابتهاج دوني؟ لكن لا علم لي ببيت صديقه، أم قد أصابه مكروه؟ أيعقل أن لغريب يد في اختفائه من بيته في هذه اللحظات؟ لربما أراد الانتقام منه فاحتجزه عنده، أو حجزه عند غيره، ليس من الحكمة الآن إلا أن أتصرف، قد يكون في أمس الحاجة في هذه الساعة التي يحتاج فيها الصديق صديقه، فما نفع الصديق إذا لم يجده صديقه وقت شدته وكربه، لكن لا اطلاع لي ومعرفة على وجه هذه البسيطة على بيت غير هذا الذي أنا فيه والمسكن الذي يسكن فيه غريب، فليس أرى إلا أن تحملاني قدمائي إلى اقتحام حجرته، وهناك ما أدراني قد أجد علم ما أجهل.

تموه هوميروش في مكانه واختفى، وفي ثوان معدودة كان على الباب الخارجي لفيلا أهل غريب، اخترق الباب بجسده الخفي، صعد درجات السلم، بل كان يصعد سابحا دون أن تلمس قدماه درجاته، وإذا به على مقربة من غرفة غريب يُفاجأ بالخادمة فوزية تسترق السمع

باهتمام شديد على الحجرة، ويذاها تحملان صينية بها كأس عصير،
أرعى السمع بجوارها من حيث لا تراه بجسده غير المرئي.

- أتت الشرطة صباحا وقامت بالقبض عليه.

- ربما يا غريب تسرعنا كثيرا في تزوير الشهادات، فقد يُقحمنا وائل،
ويُخبر الشرطة بما جرى بيننا وبينه يوم أمس.

سمعا قهقهة غريب المدوية قبل أن يقول:

- لا تنزعج من ذلك يا كمال، ولا تحسبني غيبا كما يقولون، فقبل أن
نُقدم على ما أقدمنا عليه، عرفتُ وزني ووزن والدي، فالشرطة لا
تستطيع أن تُفحِمنَا مع ذلك البائس، وإن فعلت بدليل يورطنا فأوراق
تحت الطاولة تُنقذنا.

لم يكن هوميروش لصغر سنه وعقله، يفهم شيئا مما دار بين غريب
وكمال، فسمع تلك الكلمات كأنه يسمعها بلغة لا يفهمها، "قبضت عليه
الشرطة"، "تزوير شهادات"، وهل قانون هؤلاء الإنس يعاقب على
تزوير أوراق؟ وهل الشرطة تقبض عليهم لمجرد نسخ شهادات؟

لم يشعر هوميروش بفداحة الأمر وجسامته، إلا وهو يرقب فوزية
الواقفة بجانبه مذعورة، وقد وضعت يمانها على فمها، والآخر تمسك
به الصينية التي تحمل كأس عصير، وكادت تسقط منها وأصابعها
ترتعش، لو لا أن عادت بيمينها لتساعد يسراها على حمل الصينية،
ثم بعدها وضعتها على منضدة كانت قريبة منها، مسحت دموعها التي

لم تنزل بعد، طرقت الباب، فسمعت الإذن بالدخول، دخلت ودخل هو ميروش وراءها سابحا في فضاء الحجر، حلق في وجهي غريب وصديقه ببغض وحقد، لا حقا على ما قالاه، فهو لم يفهمه كما فهمته فوزية، لكن لعلمه أنهما تسببا لوائل بمشكلة ما، بعدما رأى ذلك على وجه فوزية.

استعدت فوزية للخروج بعد أن ناولتهما كأس عسير، أما هو ميروش فقد بدا عليه أنه لم يقرر بعد، هل يتبعها أو يمكث في الحجر ليخوض معهما جولة جديدة من الترهيب والتخويف، قبل أن يصمم الخروج مع فوزية ليرى أثر ما سمعته على وجهها لعله يفهم منها ما لم يفهمه منهما.

توجهت فوزية إلى غرفتها وهو ميروش يلاحقها ليدخل مع دخولها، انقضت على سريرها بجسدها كله، وهي تكتم بكاءها وأنفاسها بيديها كي لا توقظ طفلها من نومها، وقد أدنت لدموعها بالانسياب من وجنتيها على خديها، بكت ما شاء الله لها أن تبكي، وهو ميروش ينظر إليها بإشفاق، وقد بكى لبكائها، وتأثر لتأثرها، حتى ازدادت ملامحه المخيفة سماجة، ولو رفعت الحجب لتراه فوزية في حالته تلك، لودعت آلامها وغصتها إلى مثاها الأخير.

بعد أن هدأت بعض الهدوء، تمتت قائلة:

- إذن وائل قبضت عليه الشرطة وهو في السجن، لابد وأن أزوره
غدا صباحا، وسأخذ له معي ما تطيق يدي حمله من أطعمة وأشربة،
فمن له المسكين في هذه الديار غير ربه، لا معين ولا حميم يشد أزره،
لم أره المسكين إلا شاكرا حامدا، وقد اجتمعت الدنيا على شقاوته
وبؤسه، وضنك عيشه.

ثم ما لبثت أن استوت في جلستها كالملدوغة، وتنهدت بقوة تنهيدة
كادت أن توقظ بها ابنيها، وذلك عندما تذكرت صديقه الجنى، الطفل
الجنى الذي يراقبها وهي غير فطنة بوجوده معها، وغير مدركة أنه
يتقاسم معها هواءها ومجال غرفتها، بل ومشاعرها وأحزانها وتأثرها
وبكاها، ولو علمت ما خفي عنها، لو علمت قوته على التخفي وأنه
موجود بجوارها، لكانت لتلك الزفرة التي زفرتها وقع آخر ورأى
آخر.

- أين يمكن أن يكون صديقه الجنى الآن؟ أيمن أن يكون معه في
سجنه يؤنس، ويخفف عنه أحزانه وآلامه، فلو كان له صديق جنى
كما قال، فما أحسب إلا أنه معه، فالجن لها قوتها الخارقة في التخفي
والظهور في أي مكان شاءت.

ثم ابتسمت وضحكت عندما تخيلت أن وائل يحادث الجنى المخفي
ورفاقه سجنه مبهوتون من جنون هذا الرجل الذي دخل سجنهم حديثا،

وهو يتحدث لنفسه ويبتسم لوحده، وقد أخذ الاستغراب لبهم من رجل
فقد عقله لأول يوم سجنه.

أما هوميروش في هذه اللحظة فقد نزلت عليه سحابة الخجل
والحياء من قول فوزية، فحقا كان يجب أن يكون معه، لكنه طفل
ساذج لا مؤهلات له ليحقق ما تطمح له الخادمة فوزية، لذلك صمم
أن يأتي غدا صباحا كما قررت هي ليرافقها إلى السجن الذي يتواجد
به رفيقه دون أن تعلم، هكذا قرر وهكذا قررت فوزية.

استعدت فوزية لنزع ثيابها لتخلد لنومها، فخفق قلب هوميروش حياء
وخجلا، فاختلف في حينه من حبرتها مغادرا إلى عالمهم قبل أن يرى
ما لا يحق له رؤيته.

(26)

اليوم السابع

في صباح اليوم التالي أحس وائل بعد صحوته، بأن كل أطرافه تؤلمه وتوجعه، وأن بلاط أرض السجن الخشنة التي نام عليها أثرت في مفاصله، وهو يتصور لو لم يُحسن إليه صاحبي سجنه ببعض الأفرشة، كيف ستكون دخيلة نفسه وهيئة جسده من الأسى والتوجع.

انتبه إلى رفاقه فوجدهما يغطان في نوم عميق، ويشخران شخير العجائز، ابتسم لطول نومهما، فهو الذي كان صاح من نومه قبيل الفجر، فصلى ثم عاد إليه ليستيقظ الآن ولم ينم قدر نومهما.

تخلى وائل عما يُشغل رفاقه إلى ما يُشغله، شرع يستجدي ذهنه لعله يهبه طريقة يفتنم بها وقته، تذكر وعد عماد له أمس بأن يُعيره مصحفاً يقرأ فيه مقابل علبة سجائر، وهو حائر في أمره، أيشترى الحسنة بالسيئة، وأيها نفعه يغلب ضرره، الحسنات التي سيجنيتها بقراءة كل حرف من حروف القرآن، أم ضرر السجائر على صاحبها، هو متشوق لقراءة القرآن وسينقض عليه بمجرد أن يراه

انقضاى الهائم بحب زوجته عليها؁ لكن مقابل هذه الحسنه؁ سيئه؁ أيعقل أن تكون شرائع المسجون تختلف اختلافا بائنا عن شرائع الحر؁ فهو يعلم أن الضرورات تبيح المحظورات؁ ويعلم أن الإسلام قد شرع رخصا عند الحاجة ووقت الحرج؁ وأن حالة المريض تختلف عن الصحيح؁ وحالة المقيم تختلف عن المسافر؁ إذن؁ فلم لا تكون حالة المسجون تختلف عن الحر؟ بل هو كذلك؁ فلو لم نأخذ في السجون بالرخص؁ لما استطعنا القيام بفريضة واحدة على وجهها؁ فصلوات بوضوء واحد وتيمم أحيانا؁ لأن غالب الوقت لا تكون الحمامات على قبحها إلا شاغرة؁ وصلاة الجماعة لربما لا تقام إلا الجمعة؁ فلم لا تكون بعض المحظورات هنا مباحة؁ والرخص على أشدها عكس ما تكون خارج السجون عندما تتعلق بحالات خاصة فقط؟

قرر وائل أن ينسى الأمر لحين وقوعه؁ فعزم على أن يُشغل وقته ببعض التمارين الرياضية؁ استرسل فيها ساعة إلا ربعها؁ وما أوقفه من إتمامها وحال بينه وبين ذلك إلا انتباهه لاستيقاظ عماد ومراد من نومهما في وقت واحد؁ وكان لهما مخا واحدا أعطى لهما الإشارة بالاستيقاظ في نفس اللحظة؁ خمن لعله أن يكون قد أزعجهما بحركاته فتخرج؁ قبل أن يسمع أحدهما يقول مبتسما؁ ثم ضاحكا:

- صباح الخير؁ أيها القاتل.

- صباح الخير عليكما؁ كيف أصبحتما؟

رد آخر.

- كما ترى، محرومان من النظر إلى مفاتن النساء وجمالهن خارج السجن.

- ما دام الأمر يصل بكما إلى ذلك الحد، فلم لا تتزوجان؟

التفت بعضهما إلى بعض كعادتهما يضحكان بسخرية قبل أن يقول مراد:

- أيتزوج من لا يملك عملا ولا دارا، لا وظيفة، لا حياة مثل حياة غيرنا، لا شيء من ذلك.

سكت برهة وهو ينظر إلى الأفق، وكانا لا يزالان على هياتهما في فراشهما ثم أردف بنبرة حزينة:

- نحن أيضا نحب أن نعيش كما يعيش غيرنا، أن يكون لنا بيتا نأوي إليه، أسرة تتفقدنا، حبيب يسأل عنا، عمل نغشاه ونقبل عليه كل صباح، زوجة لكلينا، كل واحدة منها تستقبل زوجها وهو عائد من عمله بشوشة منشرحة، تُنسينا نصب الحياة، تعب العمل، تضمنا إلى صدرها، وتنسينا مرارة العيش، بل تنسينا البحث عن عارية أو ساقطة لإشباع نزواتنا وشهواتنا.

سكت ثم نظر إلى وائل، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

- لكن يا وائل، ليس لنا مما قلته شيئاً، أنت ربما عندما رَحَبْتَ بك الحياة، وبدأتَ تعقل، وجدت أن لك أسرة وأبوان، وربما دراسة وعمل، فهي التي شكلت أخلاقك، أما نحن، فلم يعرف أحدنا أن له أبا أو أما، أو بيتا يسكنه أو أسرة يلتجئ إليها، عندما عرفنا الحياة عرفنا ذواتنا أيتاما في جمعية خيرية، كبرنا وترعرعنا هناك، لكن لم نترعرع معنا الأخلاق التي معك، أهملوا تربيتنا ورمونا إلى الشارع، كيف تطلب منا في قرارات نفسك أن نكون مثلك يا وائل كيف؟ أتظن أننا لا نحب ربنا، ولا نحب ديننا، وأنا نخالف شرائعه حبا في مخالفتها، لا يا وائل أبدا، فأنا فطنت عند استيقاظك لصلاة الفجر، وبكيت حينئذ يا وائل، بكيت، أتعلم لماذا؟ لأننا نحب الصلاة ولا نستطيع إليها سبيلا، لماذا لا نجد من يأخذ بأيدينا إلى واحة الأمان، واحة نحس بها بالاطمئنان، ونحس أننا نحن أيضا مواطنون صالحون، ولسنا مجرمين كما يصفوننا، هذا القبح الذي تراه على وجوهنا هو قبح الأيام التي زرعه فينا، ولو كانت ظروفك مشابهة لظروفنا فلا أحسب أن تخطئ أفعالك أفعالنا، ولا أقوالك أقوالنا، ولا قبح منظرك قبح منظرنا.

ثم بكى وتتحب كمن لم يبك من قبل، بكاءً من خَزَن دموعه الدهر كله لهذا اليوم، سألت الدموع غزيرة على وجهه، وقد شاركه صديقه بكاءه ونحيبه، بل شاركهما وائل أنينهم وتأوهمهم، فأمسك الثلاثة

وجوههم بين أيديهم وقد راحوا في بكاء و عويل، وسيُخطأ من لم يشاهد حالتهم تلك إذا جزم أن الرجال لا يبكون.

وما أعادهم إلى حالتهم الطبيعية وكفكة دموعهم، إلا صوت مفتاح الشرطي في قفل باب السجن، وقد أتاهم بفطورهم، وهو مُستغرب من إطرأهم على البكاء والنحيب. وضع لهم الفطور دون أن يتلفظ بكلمة، وعاد من حيث أتى.

تناول الثلاثة فطورهم على رداءة ما يأكلونه، كأس شاي، قطعة خبز شبه يابسة، وزيت لم يتبين لهم أهو لزيتون أو غيره، ولم يعيروا الأمر اهتماما، لربما للجوع الذي ألمّ بهم، تناولوه وهم يضحكون ويمزحون مع بعضهم البعض، وكأنهم لم يكونوا قبل لحظات فقط غارقين في مشاعرهم الحزينة، المبكية.

بعد ساعة من فطورهم، وقد وقى عماد بوعدة، كان وائل يقرأ في المصحف، وقد كفاه التنقيب في مسألة جواز أو حرمة شراء قراءة القرآن بالسجائر، إذ أعاره له دون مقابل، بل بمقابل واحد فقط وهو أن يدعو لهما بعد كل تلاوة يتلوها فيه.

وهو كذلك مشغول بتلاوته، إذ سمع صوتا مألوفاً لديه رغم غرابته، يناديه باسمه، التفت في كل الأنحاء فلم يبصر أحدا، غير رفيقه المستلقين على سريريهما وقد سبحا بخيالهما إلى عالم يجهله، عاود النظر في حروف وكلمات المصحف، إذ خال ذلك توهما، فعاد النداء

مرة أخرى قُرب أذنيه مباشرة وهو يحثه على التجلد، فليس المنادي إلا أنا هوميروش، خفق قلب وائل واهتز جسده وقد أثار انتباه صاحبها سجنه، فلم يعيراه اهتماما، إذ ظنا أن ما به هو خشوع تلبسه عند قراءته لآيات كريمات من مصحفه، فعادا إلى عالمهما في أفق السماء متأملين، وظنُّهما به هو نفسه الذي تمناه وائل أن يظناه به عندما وجدتهما قد عادا إلى تأملهما.

حرك وائل رأسه متفهما ومرحبا بالطفل الجني الخفي، وقد أمسك عن القراءة وهو يُلقي سمعه لعله يسمع المزيد من صديقه الجني فيؤنسه ويطر به بصوته، خصوصا أنه اشتاق إليه.

- أتعلم يا وائل، أحمل لك أخبارا سارة؟

ابتسم وائل ومال بجذعه إلى أمامه، كأنه يقترب بأذنيه من المتكلم ليُفصح له عن الخبر السار.

- هناك في الخارج زيارة لك.

حرك وائل يده من حيث لا يراه صديقه دلالة على الاستخبار والاستنباء عمن جاء لزيارته، فقال هوميروش ضاحكا:

- أنا أولهم، جنّت مع فوزية دون أن تشعر بي، ووجدنا فتاة تسأل هي الأخرى عنك وتريد زيارتك، وأخبرتهم أن اسمها هدى، ثم لحق بنا بعدها شاب في مثل عمرك، يسأل عنك أيضا، وقد أنبأهم أن اسمه جمال، تركتُ الثلاثة وقد عرّف كل واحد منهم للآخر بُغية مجيئه

وهي زيارتك، فتعارفوا على بعضهم البعض، ينتظرون دورهم للمناداة عليك، وقد سبقتهم لرؤيتك قبلهم، فالحمد لله على نعمة الجن. ضحك وائل بصوت عال دون أن يشعر بمن يشاركه السجن، وعندما تظن إلى تحديق صديقيه به باستغراب، أشار إلى المصحف قائلاً:

- يُبكي ويُضحك.

ضحكا لضحكته ولدعابته، ولغرابة جوابه، قبل أن يقول مراد:

- ماذا قرأت بالضبط فأضحك.

رفع وائل رأسه إلى السقف كأنه يفكر في الجواب من حيث يعلم أنهما يريانها، وحك رأسه قبل أن يقول:

- بشرتني آية من آياته بخبر سار فضحكت.

وما إن أكملها وائل، حتى سمعوا الشرطي ينادي على وائل لزيارة أخته، خرج وائل متحفزا مسرورا وهو يسوي هندامه، وقد ذهل صاحبيه لما قاله، وما تحقق بعدها مباشرة، وهما ينظران إلى بعضهما البعض كالعادة، قبل أن يقفرا من سريريتهما في لحظة واحدة منقضيين على المصحف، وباحثين فيه عن البشارة التي تحدثت عنها وائل، لعلهما يلحانها أيضا.

في قاعة الزيارة لم يتمالك وائل نفسه فاندفع معانقا جمال إلى صدره بقوة، وقد نسي كل ما كان يُشغل باله من تواجد جمال في نفس الوقت والمكان الذي جاءت فيه الشرطة إليه للقبض عليه، راح يحتضنه ويقلب النظر في وجهه، ثم التفت إلى هدى وأطال النظر إليها وهو مبتسم ابتسامة مشرقة في وجهها، ثم حياها تحية علمت بها مقدارها في نفسه، وقبل أن يخرج الأمر من بين يديه ويظن المتواجدون معهما بهما الظنون، التفت إلى فوزية مبتسما ابتسامة حارة لا تقل حرارة عطفها عن التي ألقاها للأولى، حياها هي الأخرى شاكرًا لها تحملها مشاق الاتيان لزيارته.

جلس الأربعة، بل الخمسة، معهم هوميروش الخفي غير المرئي، وقد بدأ وائل يسرد لهم بالتفصيل ما حدث معه، وما حدث قبل ذلك مع غريب، وما دفع غريب لفعلة تلك، وتكمل فوزية ما كانت قد سمعته ليلة أمس، فاتضح لهم بجلاء سبب تواجد وائل بالسجن، وأن تلك مؤامرة من غريب وصديقه كمال ليتخلصا منه ومن اسمه في قائمة المقبولين للمنصب، ثم أوضح جمال سبب تواجده في ذلك الوقت في ذلك المكان، وأن ذلك لم يكن إلا إتيانه في الموعد الذي حدده، أما عدم تحركه وعدم نطقه بأي كلمة، فراجع ذلك لصدمته مما رآه، وتأثره بما يجري لصديقه، تعانقا مرة أخرى وقد اتضحت الأمور جليا بينهم كلهم، فصمموا على بذل كل ما في استطاعتهم ليُخرجوا وائل من سجنه الذي دخله ظلما وعدوانا.

وقبل أن يعلن الشرطي على أن وقت الزيارة قد انتهى، أعطى كل منهم ما قد جلبه معه لوائل، فجمال قد رأى عندما قبضت الشرطة على وائل أنه ترك مسكنه مواربا، فدخله اليوم وأخذ معه ملابس وائل وبعض الأفرشة والأغطية وأتى بها، مع بعض المشتريات التي اشتراها، وأما فوزية فلم تنس أن تحضّر له مأكولات ومشروبات متنوعة أعدتهم خصيصا له، وأما هدى فقد سلمته ما جعلت دموعه تذرف، أهدته مصحفا جميلا، وسلمته ورقة نقدية علم فيما بعد أنها من فئة مئتي درهم، فلربما علمت أنهم يحتاجون النقود في السجن.

لم يتمالك وائل نفسه، اعترت جسده رجفة متشنجة، شرعت الدموع تنساب من عينيه على خديه دون توقف أو استحياء، وهو يشكرهم على صنيعهم هذا ويعدّهم أنه لن ينسأ لهم أبدا، ولولا عدم جواز عناقهم جميعا، لجمعهم في حضنه كلهم، شاركوه التأثر، والنساء البكاء، أما هوميروش فأخذ يقمش وجهه تأسفا لأنهم كلهم أهدوه ما أحضروه، إلا هو لم يهده شيئا، لكنه أدرك أن وائل متفهم لذلك، وبأن له مبرراته التي يفهمها وائل وهي أنه لا يستطيع أن يأخذ أو يلمس شيئا ماديا بيده. وهم كذلك إذ سمعوا "انتهت الزيارة"، قالها الشرطي، فأعاد الحراس وائل إلى سجنه، وعادوا هم مجتمعين في طريقهم يفكرون في سبيل يخلصون به وائل من سجنه.

(27)

في حجرة، جدرانها مطلية بطلاء لونه وردي مفتوح، ومعلق بها ثلاث لوحات، إحداها مرسوم فيها شلال ينطح الصخور الحجرية أسفله، وأخرى صورة لطبيعة خضراء جميلة، غلب لونها الأخضر على الأصفر، وثالثة رسم لواقعة وبحيرة مياه في إبداع منقطع النظير، وفي الجنبات الأربع للغرفة منضدات صغيرة تحمل مزهريات متنوعة الأزهار والورود، ووسط الغرفة سرير عليه أفرشة وملاءة منسقة ومصفوفة، وبالقرب منه مكتب متوسط الحجم، تبرز كتب متنوعة متراسة فوقه، مما لم يُبق في الغرفة مساحة فارغة إلى ممر بين المكتب والسرير، في هذه الحجرة كانت هناك هدى جالسة إلى مكتبها، تكتب في أوراق دفتر طويل أمامها، وتراجع في نفس الوقت من كتاب على يمينها، بدت أنها مشغولة رغم الإجهاد البادي على وجهها، وما هي إلا لحظات حتى أراحت قلمها من الكتابة، وأغلقت جفون دفترها، وردت كتابها ليختبئ بين الكتب الأخرى.

هدى تسكن في شقة مع ثلاث زميلاتها، قمن باستئجارها وكل منهن احتجزت لنفسها غرفة مستقلة، وقد حظيت هدى بهذه الغرفة، هي ليست ابنة هذه المدينة، تزور والديها كلما سنحت لها الفرصة لذلك.

كانت جالسة إلى مكتبها المشرف على نافذة مطلة على أفق السماء، نظرت إلى السماء حيث أقمرت بضوء البدر في أشد أيام إضاءته، ولربما ذكّرها بأهلها، فراحت تستحضر صورهم بين عينيها وهي متمثلة في وجه البدر، وتبتسم كلما مرت بها صورة مع أحد أفراد أسرتها، ولما أشبعت عاطفتها من النظر إلى صور أهلها، تذكرت ما مرّ بها اليوم، خصوصا زيارتها الأولى في حياتها للسجن، وتذكرت كذلك ما اتفقت عليه مع فوزية وجمال، كخطوة أولية يقومون بها لمساعدة وائل، وهي أن ينصرفوا صباحا إلى مدير المركز ليرجوه أن يتدخل ويتصرف، خصوصا وأن اليوم انتهت إجازته، وغدا سيباشر عمله بالمركز، وقد حمدت الله في نفسها وقتها عندما أصرت فوزية أن ترافقهم إلى المركز، وما ذلك الحمد والغبطة إلا لئلا تكون برفقة جمال إلى المدير وحدهما، فأسعدها إصرارها ورحبت به.

ابتسمت هدى حينما رأت صورته في القمر، صورة وائل، فطارت بها ذاكرتها تُذكّرُها بهديتها التي أعطتها له اليوم، وكيف استبشر بها وسعد سعادة لا تكتمل إلا بخروجه، نعم رأت في عينيه ذلك الفيض من العطف والحنان عليها، عندما أعطته الهدية أحست بقلبه ينبض، بعينيه تتلألأن وبشفتيه تشكرانها دون أن تتحركا، ولم تكن هي أقل

سعادة منه وهي تسلمه الهدية، كانت متأكدة أنها ستبهجه بها، فليس أجمل من أن تهدي من تحب أخلاقه مصحفاً يقرأ فيه آيات ربه، تثبته وتصبره، وتبشره بنهاية الآمه.

أفاقت هدى من إجمالها خجلة معاتبه نفسها حينما وجدت ذهنها مشغول به، فشعرت بأنها أكثر التفكير فيه هذه الأيام، أ لأنها تحس بشيء في قلبها اتجاهاه، فتغرق ذكرتها بعض اللحظات في تذكره، أم لأن مصابه الذي هو فيه جعل قلبها يُشفق عليه، وما ذلك إلا رحمة أعدها الله في قلوب عباده؟

– ما الذي يفعله الآن يا ترى في سجنه؟

قالتها وذهنها لا يزال في عالم وائل.

في الجانب الآخر، لم يكن وائل يصنع شيئاً غير ما تصنعه هي في نفس ذلك الوقت، كان مستندا على ظهره في مكان نومه الذي صنعه بالأفرشة والأغطية التي جلبوها له، وعيناه معلقتان بالسقف يتأمله، بل يتأمل فيه صورتها التي رآها اليوم، لم يخف عليه الحزن الذي رآه في عينيها، رغم محاولتها تبديده، ولم يغفل عن نظراتها التي فهم منها حثها له على التجلد والصبر، لم تتحدث كثيرا في تلك الزيارة، بل لم تتحدث على الإطلاق غير رد التحية والسؤال عن الأحوال، لكن عيناها قالتا الكثير، بل الكثير جدا، عيناها كانتا تقولان له: "لا تجزع يا وائل، كل شيء سينتهي قريبا، وستعود إلى مقعدك في التكوين،

أليس أشد الأوقات حلقة وسوادا ذلك الوقت الذي يعقبه الفجر، فجرك قريب يا أخي، فلا تبالي بما أنت فيه".

عانق إلى صدره مصحفها، وكان قد رد مصحف عماد له، وشكره كثيرا على أنه أعاره له في ذلك الوقت الثمين الذي كان يحتاج فيه إلى مصحف، ولم ينس أن يشارك صاحبيه بالسوية بينهم الثلاثة كل الأطعمة والأشربة التي أحضروها له، ولم يفهم أن يسأله عن زاره، فأجاب أنهم مجرد أصدقاء لا أكثر، فتمنيا لو يكن لهما أصدقاء هما أيضا يزورونهما، وقد وعدوه بأن تتغير أحوالهما إذا ما قُدر لهما الخروج من السجن.

أفاق وائل من شروده على نداء يعرفه الآن جيدا، إنه هوميروش وقد وعده في تلك الزيارة أن يزوره ليلا.

– صديقي الرائع اشتقت إليك فأتيتُ لزيارتك كما وعدتُك.

التفت وائل إلى رفيقيه فرآهما قد ذهبا في نوم عميق، وبدأ شخيرهما يستعد للانطلاق، فقال هامسا، قبل أن يضحك بخفوت:

– مرحبا بك أيها المونس الليلي.

عاجله هوميروش قائلا:

– كنت مصاحبا لأصدقائك عندما غادروا زيارتك ثم غادرته بعدهم، وقد اتفقوا على زيارة مديركم في المركز لإقناعه بالتدخل.

لم يترك همسه وهو يقول:

- كل شيء بقضاء وقدر يا صديقي، إذا قدر الله شيئاً فسيكون، وإذا لم يقدر طبعاً فلن يكون.

صمت لحظة ثم أكمل.

- لكن لم تخبرني لم لم أرك قبل دخولي السجن؟

- كالعادة أبي يرسلني لحفظ القرآن الكريم.

- إذن كم تحفظ منه الآن؟

- لا زلتُ في البداية.

تسامر وائل وصديقه هوميروش أكثر من ساعة، ثم ودعه الجني إلى لقاء آخر إذا سنحت له الفرصة لذلك، ووائل يودعه شاكرًا على مؤانسته له.

(28)

اليوم الثامن

عاد مدير المركز الحاج يونس بعد إجازته التي أخذت منه أربعة أيام لياشر عمله، كان جالسا في إدارته على مكتبه الجلدي يطالع بعض الملفات التي يُطالعها عليه نائبه محمود الجالس أمامه جهة اليمين، وكانت هناك أيضا سميرة الموظفة التي تشتغل بإدارته جالسة جهة اليسار، كانت قد أنهت عملها في مصلحة استقبال الشهادات والتسجيل، وقد عادت إلى مكتبها وإلى كرسيها الذي شكا بطالته من طول فراغه، بدا المجمع الصغير بينهم كاجتماع رسمي مصغر، محمود يمهده بملفات بين يديه ويشرح له ما يلزمه شرحه، والحاج يونس يطالع فيها، مع تحريك لرأسه بين الفينة والأخرى دلالة على الاستحسان، وسميرة منشغلة في كتابة ما يشبه تقريرا في وريقات دفتر وضعت على فخذها، وبعد أن انتهوا من كل الملفات عاد الحاج يونس عليها بالختم والتوقيع، ثم شكر محمود على مجهوده الذي قام به في مكتب المدير، وأذن له أن يعود إلى مكتبه فلربما اشتاق مكتبه إليه، قالها له الحاج يونس بدعابة وهو يضحك، فرد عليه محمود.

- هذا واجبنا يا حاج يونس ومن صميم عملنا، ومتى أردتم أن نخدمكم فنحن في استعداد لذاك.

- شكرا لك أنت أيضا أستاذة سميرة على صبرك ومجهودك في مصلحة التسجيل، فلابد وأن أبناءنا الأساتذة قد ارتاحوا لمعاملتك وتسهيلك لمأمورياتهم، أعلم أن العمل الذي قمت به يحتاج إلى أكثر من موظف وليس بالأمر الهين، لكن كما كان متوقعا استطعت بحنكناك وبتجربتك بمفردك أن تنهي عملك بالشكل المطلوب وفي الوقت المطلوب.

كانت تلك مجاملة من الحاج يونس لسميرة، فتفوهت قائلة:

- لا داعي للشكر حاج يونس، كما قال محمود نحن في الخدمة دائما، ويسعدنا أن نكون في خدمة إخواننا الأساتذة، وراحتهم من صميم عملنا.

انتهى الاجتماع المصغر فأذن الحاج يونس لمحمود وسميرة بالانصراف، وبعد انصرافهما شرع في نقل بعض المعلومات وتسجيلها على الحاسوب، مضى ما يقارب الساعة في عمله عندما سمع طرقا على الباب، التفت نحوه لثانيتين قبل أن يأذن للطارق بالدخول، لم يكن الطارق شخص واحد بل ثلاثة أفراد، ولم يكن هؤلاء الثلاثة إلا جمال وهدى وفوزية، نظر إليهم الحاج يونس بشيء من الاستغراب، قبل أن يطلب منهم الجلوس، جلست هدى وفوزية على

كرسيين أمامهما، وجلب جمال كرسيًا كان مع آخرين مرتبين بجانب الباب.

- مرحبا بكم، بماذا يمكنني خدمتكم.

نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض كأنهم يتشاورون فيما بينهم حول من يتقدم للحديث، مال جمال بجذعه إلى الأمام مستعدا للكلام، وبعد أن عزّف بنفسه قال:

- سيدي جنّاكم لتتحدث معكم في أمر الأستاذ وائل.

التفت الحاج يونس مباشرة إلى هدى وقد بدا الغضب على وجهه جليا وهو يقول:

- أ لم أقل لك من قبل أننا تحكّنا قوانين، وأنني لا أستطيع مخالفتها، جنّنتي في المرة الأولى بمفردك، والآن أتيت ومعك آخرون.

التفت جمال وفوزية في نفس الوقت إلى هدى، وبدا عليهما أنهما لم يفهما شيئا، أو أنهما يسألانها بنظراتهما عن الوقت الذي أتت فيه إلى هنا دون أن تخبرهما، أو لم يتفقوا على الحضور سوية؟

امتقع لون هدى ليصبح أحمرًا كالطماطم، وتورد خجلا، قبل أن تقول بصوت مرتفع بعصبية غير معتادة منها:

- أستاذ، الأمر يختلف عما جنّتك من أجله في المرة الأولى، أرجو ألا تتسرع، واسمعنا حتى ننتهي إذا أردت أن تفهم سبب مجيئنا.

قالتها وأبعدت نظراتها عنه، وكأنها توازن في عقلها أكانت الكلمات التي اختارتها صائبة، أم أن اندفاعها جعلها تلقي الكلمات على عواهنها دون اصطفاء لها، وفي نفس الوقت تتعجب من جرأتها التي لم تعهد لها من نفسها هي أيضا، أما الحاج يونس فرجع برأسه إلى الخلف مستندا على مسند مقعده الجلدي، وقد بدا عليه الحرج هو أيضا، فعقد يديه على صدره دلالة على أنني أسمعكم ففضلوا بالحديث، وكانت حركته تلك يخفي بها حرجه الذي ظهر على ملامحه.

عادت هدى بعد صمتها لتتحدث مرة أخرى.

- أعتذر منكم أستاذي، لا يحق لي أن أرفع صوتي في حضرتكم.

قالتها والحاج يونس يحرك رأسه كأنه تقبل اعتذارها ويحثها على الإفصاح عما جاؤوا من أجله، فأردفت قائلة:

- أعلم أنكم استأنفتم عملكم اليوم بعد إجازتكم، لكن لا أعلم هل تعلمون أن وائل في السجن؟

- وائل في السجن؟؟

قالها المدير باندهاش وبعصبية وهو يتقدم برأسه نحو مكتبه كأنه أحس بصعق كهربائي.

- ما الذي حدث في غيابي وأنا لا أعلم به، هيا فليتنفضل أحدكم وليشرح لي ما في الأمر.

شرح جمال يقص عليه كل شيء يعلمه، وكذا ما أخبرهم به وائل أيضا عندما زاروه في السجن، وما حدث بينه وبين غريب عندما سلمه الشهادات المزورة، وما قام به نائب مديره باتصاله بالشرطة، وبعد أن انتهى من كلامه، تحدثت فوزية لأول مرة، فعرفت بنفسها ومن تكون، وكشاهدة على الأمر أخبرت الحاج يونس بما أمرها به غريب من اتلاف لشهادات وائل، وما سمعت منه وهو يتحدث مع صديقه في تلك الليلة.

ارتفع الغضب في وجه الحاج يونس كصخرة بركانية عندما فهم كل شيء، كأنه لم يغضب من قبل قط، تناول الهاتف الذي أمامه، ضغط على رقم فيه، انتظر بعض الثواني ليصيح في الطرف الآخر الذي يقابله على الهاتف بأن يحضر إلى مكتبه حالا، لم يضع الهاتف من يده، بل ضغط على رقم آخر وبنفس العصبية طلب من الطرف الآخر أن يحضر في الحال إلى مكتبه، وما هي إلى لحظات حتى دلف عليهم رجل وامرأة، ولم يكونا إلا محمود وسميرة، دخلا والوجوم والحيرة بادية على وجهيهما، ونظراتهما تتساءل في صمت بانبهار عن سبب هذه العصبية في اتصاله، وكانت نظراتهما ينقلانها بين مدير المركز وبين ضيوفه الثلاثة الجالسين أمامه، كأنهم قد علموا أن لهؤلاء علاقة بالأمر، أما مدير المركز فاستمر في صمته حتى بعد أن دلفا ووقفا

أمامه كأنه لم يجد ما يقوله لهما، بل كأنه يتخير الكلمات المناسبة ليقع بها على مسامعهما، ولما استمر الصمت برهة، قال محمود:

- أرجو ألا نكون قد ارتكبنا خطأ ما دون أن نعلم، ماذا في الأمر الحاج يونس؟

أجاب المدير وقد عاد إليه بعض هدوئه، رغم أن العصبية في حديثه لم تفارقه.

- تمنيت لو كان خطأ فقط، فالأخطاء تُصحح، لكن الأمور تجاوزت الأخطاء، وبلغت إلى درجة، بل إلى دركة إخفاء أمور مهمة عن مدير المركز.

قالت سميرة باندهاش:

- لم نخف عنك أي شيء، أرجو أن توضح لنا الأمر!

- لماذا لم نتحدثا هذا الصباح عندما قابلتكما عن أمر وائل، وأنتك يا

أستاذ محمود قد اتصلت بالشرطة عندما وصلتك شهادات مزورة منه؟

عاد محمود برأسه إلى الخلف بتعمد مبالغ فيه، كأن لسان حاله يقول:

"هذا هو الأمر الذي ناديتنا من أجله إذن"، فقال بعد أن حاول اختيار

الكلمات المناسبة:

- لم أشأ أن أزعجك في يومك الأول من عمالك، بل في صباحه بهذا الخبر، لذلك أجلت الأمر إلى حينه، وأنا لم أقم إلا بعملتي الذي يُرضي ضميري، فالشهادات مزورة، وحتى أبرئ ساحتي اتصلت بالشرطة. عاد الحاج يونس ليتحدث بتلك العصبية التي لم يعهدها منه أحد من قبل وهو يقول:

- متى كان إخبارك لي عن مهامي التي يجب أن أعلم بها إزعاج يا أستاذ محمود، إزعاج أن تقول بأنك وصلتك شهادات مزورة من أستاذ معين فاتصلت بالشرطة.

سكت قليلا وابتسم بسخرية وهو يكمل كلامه.

- ثم تقول لم تقم بشيء إلا ما يرضي ضميرك، وأن ذلك من صميم عمالك؟! لا يا محمود لا، ليست هذه هي الطريقة التي يُمكن بها أن تُرضي ضميرك، أتحب أن تسمع مني الطريقة الصحيحة التي لو قمت بها لأرضيتَ بها ضميرك؟ الأسلوب الصحيح يا أستاذ محمود هو أن تتصل بوائيل وتستفسره عن الشهادات المزورة التي وضعها بالمركز، وأنذاك ستكون قد قمت بأمرين في آن واحد، إرضاء ضميرك، وعدم مخالفتك للقوانين الداخلية في المركز والتي تنص على أن المتهم عندنا يُسمع له أولاً قبل إحالة ملفه على السلطات. سكت ثم أكمل.

- ثم هل تعلم أن وائل الآن في السجن ظلماً وعدواناً.

ظهر الاستغراب على ملامح محمود وسميرة، والمدير يرقبهما بعينيه قبل أن يكمل بنفس الحدة.

- نعم وائل في السجن مظلوم، لأنه لم يقم هو من تلقاء نفسه بتزوير الشهادات، وهذا ما كان يجب عليك أن تعرفه لو استدعيته قبل اتصالك بالشرطة، فقد كانت هناك مؤامرة عليه وقد شاركتما فيها بعلمكما أو بدون علمكما، ودعوة المظلوم - ربما كما تعلمان - مستجابة.

أطرق محمود برأسه أرضاً، أما سميرة فلما وجدت الحاج يونس يوجه خطابه إلى محمود فقط، وأحياناً فقط ينظر إليها، حينها تساءلت عن ذنبها في كل هذا، التفت إليها بابتسامة ساخرة، فأجابها:

- كأنك لا تعلمين يا أستاذة سميرة، كان عليك يا أستاذة سميرة عندما أخبرته بأن شهادات مزورة وصلتكم، وعزم على الاتصال بالشرطة أن تمنعيه، نعم أن تمنعيه من ذلك وتوضحي له أن قانوننا الداخلي في مثل هذه الحالات يستدعي الإنصات للمتهم أو لا قبل استدعاء المصالح الخارجية.

نكست رأسها هي الأخرى، وكان كل من في القاعة مطرقين برؤوسهم، حتى جمال وهدى وفوزية، فلم يرفعوا رؤوسهم طول المشادات التي كانت بين المدير والموظفين الذين يشتغلان معه، ساد الصمت للحظات، وقد خيم على القاعة الهدوء، قبل أن يتحدث المدير مرة أخرى ويطلب من محمود وسميرة أن يعودا لمباشرة أعمالهم.

انصرف محمود وسميرة، والحاج يونس يرقب خروجهما حتى
اختفيا، ثم نظر إلى الثلاثة الجالسين أمامه قائلاً:

- سأحاول مع ما أتوفر عليه من صلاحيات أن أتصرف اليوم، حتى
لا يستمر هذا الظلم، وإذا ما نجحتُ في ذلك فسيكون لنا لقاء قريب
يجمعنا مرة أخرى لننظر كيف يمكن التصرف مع غريب.

ثم التفت إلى فوزية وهو يخاطبها.

- وأنت أيضاً أحب أن تحضري معنا اللقاء المرتقب إذا يسر الله لنا
ذلك، طبعاً إذا أحببت الحضور معنا.

أومأت فوزية برأسها دلالة على الموافقة وهي تتمم بكلمة المشيئة،
ثم أذن لهم مدير المركز بالانصراف.

(29)

كان الضابط أسامة في مكتبه يرد على اتصال هاتفي، وما أن انتهى منه حتى دخل عليه الحارس يخبره بأن بالبواب شخص يود مقابلته، أشار إليه الضابط أسامة بيده أن أدخله، ولم يكن الذي توخى الدخول سوى الحاج يونس، وما إن رآه الضابط حتى وقف له مبتهجا وبش في وجهه مرددا كلمة الترحيب، فتبين أن بينهما معرفة قديمة وقد طالت مدة رؤية أحدهما للآخر، أشار أسامة له بالجلوس على الكرسي المجاور له في اللحظة التي جلس هو على مقعده المتحرك، وهو يسأله عن آخر مرة رأى فيهما أحدهما الآخر، حك الحاج يونس رأسه محاولا التذكر، وقد ضيق من عينيه وسبح بهما في أرجاء المكان دون أن يبصر بهما شيئا في تلك اللحظة، قبل أن يُباغته الضابط.

- كانت آخر مرة يا حاج يونس يوم دخل مجهول إلى حُرمة مركزكم واعتدى على أستاذة بداخله، شَوّه وجهها المسكينة بشفرة حادة، وأتذكر أن هذا وقع منذ أكثر من خمس سنوات.

بدا على الحاج يونس أنه تذكر هو الآخر، فتهلل وجهه، ثم ما لبث أن بزغ على ملامحه الحزن عندما تذكر تلك الحادثة المؤلمة، وحتى

لا يُطيل على الضابط، أراد أن يدخل مباشرة في الموضوع الذي جاء من أجله.

- جئتُك يا ضابط أسامة لأتحدث معك في أمر وائل.

رد عليه الضابط أسامة في حينه.

- كنت أزمعت أن أناديه يوم غد لأكمل معه التحقيق، ولم يمنعني من ذلك إلا مشاغل شغلتنني.

- أظن أننا لا نحتاج لذلك الآن، جئتُ بصفتي مدير المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين لأتنازل عن الدعوة التي قدمها نائبي ضد وائل، فقد تبين لنا أن هناك من أراد به سوءا فأوقعه في الفخ.

هنا بان الاضطراب والخجل على وجه الضابط، فقد تذكر وهو يُحقق مع وائل أن وائل اتهم غريب بتزوير الشهادات، لكنه راوغه آنذاك بكلامه لكيلا يُقحمه معه في ورطته، والآن يبدو أن لا مفر من ذلك خصوصا أن مدير المركز قد عرف بالأمر، وحتى لا يزيد الطين بلة ويقحم أسرة غريب في الأمر، فعليه أن يستجيب فورا ويعمل على إطلاق سراح وائل.

- أين ساه عقلك أستاذ أسامة؟

كان الضابط أسامة يُفكر في الأمر، ويتخير الطريقة التي يُمكن بها أن يحافظ على ماء وجهه مع إمكانية إطلاق سراح وائل دون توريط

غريب، وحتى يتضح له ما يريده الرجل أمامه بالضبط، وجه له هذا السؤال:

- ما الذي تقترح الآن يا حاج يونس؟

- طبعا إطلاق سراح وائل بعد إذنتكم.

قالها الحاج يونس وهو يحرك كتفيه دلالة على ألا حل آخر غير هذا، هنا تنهد الضابط أسامة بالارتياح، فالأمر سهل الآن، ولا توريط لأحد آخر في هذا الملف، لذلك قال له:

- سأقوم ببعض الاتصالات الآن في الموضوع، وسأخبرك متى يمكن أن يتم الإفراج عن وائل.

أخذ الهاتف وأخذ يتحدث فيه مع الطرف الآخر يُخبره أن المركز تنازل عن الدعوة، وبعد خمس دقائق من الحديث وهو يدون بعض المعلومات التي تصله عبر الهاتف، أنهى اتصاله ثم اتصل بشخص الآخر، وقام معه بنفس ما قام به مع الأول، وعندما انتهى من اتصالاته، التفت إلى الحاج يونس قائلاً:

- سننهي بعض الإجراءات وغدا صباحا سيتم إطلاق سراحه.

تصافحا الرجلان، وابتسما في وجه بعضهما البعض، وغادر الحاج يونس مكتب الضابط.

في نفس الوقت وبالقرب من المكان، كان المعني بالأمر وهو وائل كعادته في هذه الأيام من سجنه متفرغ لقراءة القرآن الكريم وتدبره، وصاحبه كعادتهما كل منهما مستلق على سريره، كان أحيانا يجمع بينهم موضوع من الموضوعات وما أن ينطلقوا في النباش فيه والحديث في ثناياه حتى ينتهي قبل أن يخوضوا فيه، وما ذلك إلا لاختلاف طبائعهم واهتماماتهم.

لم يكن وائل قد انتهى من تلاوته عندما سمع الصوت المعروف عنده الآن وهو يناديه باسمه، ابتسم وائل لهذا الصوت من حيث لا يراه صاحبه، فسمع صاحب الصوت يقول له:

- عندي لك بشرى سارة.

ابتسم وائل ابتسامة أوسع من الأولى وهو ينتظر أن يسمع المزيد، وقد فتح عينيه على وسعهما، ولم يهتم هذه المرة لصاحبه هل لمحاه أم لا، ولسان حاله يقول: "دائما تأتيني يا هوميروش بالبشريات السارة"، وما هي إلا لحظة حتى أعرب هوميروش عن الخبر السار.

- كنتُ أطوف في أرجاء الأقسام الموجودة في الجناح المقابل للسجن حيث الشرطة والحراس والضباط، وإذا بي أسمع من يردد اسمك داخل إحدى أقسام الشرطة، فلما ولجتها، سمعتهم يتحدثون عن إطلاق سراحك، ولم يكن من بالداخل إلا ضابط شرطة، ومدير مركزكم وقد عرفته من خلال حوارهما، وأخبره أنه سيفرّج عنك غدا صباحا.

هنا لم يشعر وائل بذاته ولا بمن معه، إلا وقد وجد نفسه يقفز من مكانه فرحا مسرورا وهو يردد بصوت جهور "الحمد لله لك يا رب"، "الحمد لله لك يا رب"، التفت صاحبا سجنه من سريريتهما في نفس الوقت إلى وائل التفاتة خاطفة، وقد ألجمتهما الدهشة عن السؤال، استمر صمتهما لبرهة من الزمن، قبل أن يقول عماد:

- خيرا يا وائل، ما بك تقفز من مكانك مسرورا، أهى بشرى أخرى قرأتها في مصحفك؟

ابتسم وائل، وقد بدا عليه أنه لا يريد إخفاء البشرى عليهما، لكنه يحاول اختيار الكلمات المناسبة، فقال مباشرة بعدما وجدها:

- كما قلت تماما، هي بشرى وددت أن أشاركها معكما، غدا صباحا إن شاء الله سأخرج من السجن.

لم تكن أفضل إجابة من عماد ومراد عندما سمعا الخبر إلا أن استمرت أعينهم مشدوهة صوب وائل، وقد ظهر الانبهار جليا على محياهما، وانعقد حاجبا كل واحد منهما، وضيِّقا عينيتهما، استمرا على وضعهما للحظات طال فيها الصمت، قبل أن يتحدث عماد بتردد.

- هل أنت متأكد مما تقوله؟

هز وائل رأسه عدة مرات وهو يبتسم ابتسامة تشي بما في قلبه من سعادة، آنذاك فقط قفز عماد ومراد من سريريتهما، ليجثيا على ركبتيهما قرب وائل وهما ينظران في المصحف الذي كان لا يزال

بين يدي وائل مفتوحا، وهما يقولان في نفس الوقت كما لو أنهما مبرمجان ببرمجة واحدة.

- وائل أرجوك أخبرنا متى سنخرج نحن أيضا من السجن؟

رمقهما وائل بدهشة قبل أن يطلق ضحكة لم يفهما سببها إلا بعد أن قال:

- يا صاحبي السجن، لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه، وما أخبرتكما به ليس غيبا إطلاقا، فالغيب لا يعلمه حتى رسولنا الكريم، فكيف يمكنني أن أعلمه أنا، ما حصل هو مجرد تسخير رباني مؤقت فقط.

ما إن سمع مراد و عماد إجابة وائل غير المقنعة حتى رجعا برأسيهما إلى الخلف، وقد ظهر الإحباط واليأس على وجهيهما، فقال مراد وقد أحس للمرة الأولى بأن وائل لم يتلق أي بشرى إنما كلام أطلقه على عواهنه:

- قَتَلتَ نفسا، والآن تخبرنا أنك ستخرج بعد ثلاثة أيام من سجنك فقط، بقياسك هذا فإن جريمتنا التي هي الاغتصاب أقل شناعة من القتل، وبالتالي كان لزاما عليهم أن يطلقوا سراحنا بعد يوم فقط من سجننا.

هنا أدرك وائل ألا مفر من أن يُخبرهما حقيقة تهمة، فشرع يُوضح لهما أنه ما اخترع هذه التهمة إلا خوفا منهما في يوم سجنه الأول، وأن الأحداث التي أخبرهما بها حقيقية لكنها لم تُؤد إلى وفاة، وأخبرهما كذلك بتهمته الحقيقية، وشرع يسرد لهما قصته مع شهاداته

منذ نجاحه في المباراة حتى تم القبض عليه، هنا بدا على عماد و مراد
أنهما فهما كل شيء غير ما يتعلق بالبشرى، فتمنيا له السعادة، ودعا
هو لهما بالفرج القريب، فعادا إلى سريريهما.

(30)

اليوم التاسع

وجد وائل في استقباله عند الباب الحديدي الضخم للسجن جمال وهدى، وفوزية أيضا، بل وهوميروش الذي خرج معه من السجن، وقد شهد على توديعه لصاحبي سجنه، وبكاؤه من أجلهما، أما الآن مع مستقبله فكانت سعادتهم لا توصف، بل تجاوزت سعادتهم سعادته هو بخروجه، قالت النظرات ما لم تستطع الكلمات قوله، تسالت القلوب في تلك اللحظات من أفاص صدورهم ترفرف عاليا في سمائهم الصافية لتلامس شغاف بعضها البعض، استمر الوقت بينهم طويلا كأن الزمن قد تلاشى إلا في نقطتهم، كأن الكون قد اختفى إلى من موضع وقفهم تلك، شكرهم وائل على كل ما قاموا به من أجله، أدرك أن الكلمات لا تفي بما يريد أن يفصح بها من جزيل شكر وامتنان لهم، فأتاح الفرصة للدموع بدل الكلمات لتفصح وتعبر لهم عما لم تستطع الكلمات أن تقوله في حقهم، وعندما شعروا أن اللحظات الحميمية بينهم قد أخذت وقتها، وإن أحس وائل أنها لم تأخذ حقها بعد، نزلت القلوب من سمائها لتستقر في صدورهم، هنا قال جمال:

- الحاج يونس ينتظر الآن في مكتبه، هيا لنسرع إليه.

كان الحاج يونس ينتظر وائل في لهفة وشوق من أمره، لا يدري لم أحبَّ هذا الشخص من أول نظرة ألقاها عليه، ولا يدري لم يرجو أن يكون وائل بينهم في مركزهم، تشاغل الحاج يونس ببعض الأوراق منتظرا قدوم وائل، وما هي إلا ساعة حتى سمع طرقات على الباب، فعلم أنهم قد قدموا، عدل من هيئته وأذن للطارق بالدخول، ولم يكن كما اعتقد إلا وائل ورفاقه، انتصب الحاج يونس من كرسيه الجلدي واقفا، وتسرب كالماء المنهمر من مكتبه مندفعاً نحو وائل يعانقه ويحضنه إليه ويحمد الله على سلامته.

- ظلموك يا بني ظلموك.

قالها الحاج يونس وهو يحدِّق بعينيه في عيني وائل.

- في كلِّ خير يا سيدي، لعل ما حدث يحمل خيرا لا نعلمه.

عاد الحاج يونس إلى مكتبه وطلب من الواقفين أمامه بالجلوس، جلس الأربعة أمام مكتبه، أما هو ميروش فكان يطوف بينهم في سعادة.

- يجب ألا نبدد المزيد من الوقت الآن، لابد أن نعثر على شهادتك، فلم يتبق معنا من المهلة إلا اليوم وغدا.

هنا شعر وائل بشيء من الاستغراب والتعجب، فأراد أن يعبر عنه لكنه أحس بالخرج من ذلك، وحسم أمره في النهاية فانتقى كلماته:

- سيدي أريد أن أفهم أمرا حيرني، وأرجو ألا تسيء فهمي، لم بالضبط هذه العشرة أيام من المهلة؟ أو... أقصد ألا يمكن تجاوزها ما دام الأمر يتعلق بمركزكم وأنت مديره؟

أجابه المدير مبتسما:

- الأمر لا يتعلق بمركزنا فقط، فالمركز ليس مستقلا عن المؤسسات الأخرى التي نحن تابعين لها، وحتى أوضح لك الأمر أكثر، ملفاتكم أنتم الناجحون في المباراة، لا تمكث هنا في المركز إنما نرسلها للأكاديمية الجهوية، والأكاديمية ترسلها بدورها إلى مؤسسة أخرى، وآخر أجل لنرسل ملفاتكم إلى الأكاديمية هو يوم غد مساء، وأنا أخرت إرسالها إلى حد الآن من أجلك فقط يا وائل، حتى يتسنى لك إرجاع شهادتك والتسجيل بها في مركزنا، أفهمت الآن.

فهم الآن وائل كل شيء، وقد برز في عينيه شكر وامتنان لمديره على هذا الصنيع، فلم يكن وائل يظن أنه سيصادف في مؤسسة من المؤسسات مديرا يتعامل بهذه الأخلاق، فمن هو وائل حتى يؤخر مدير المركز إرسال الملفات من أجله، فقد يتلقى إنذارا أو توبيخا، لكنه لم يفكر إلا في أستاذ لم يبدأ تدريبيه في مركزهم بعد حتى يتسنى له معرفة قيمته ليحرص على الاحتفاظ به معهم، أخرج صوت المدير وائل من إجماله وهو يقول:

- لا يجب أن نضيع الوقت الآن، من منكم لديه الحل لمشكلتنا هذه؟

شرع الجميع يُفكر للحظات قبل أن تقول فوزية بتردد:

- لاحظت لي فكرة الآن أرجو أن تعجبكم.

التفت إليها الجميع بترقب وهم ينتظرون أن تعرب عن هذه الفكرة، فأكملت.

- غريب علم بأن وائل في السجن، وهو لا يعلم بخروجه، ما عليك سيدي المدير فعله هو أن تتصل به وتطلب منه الحضور إلى مركزم لأمر هام، وطبعا سيظن أن سبب هذا الاتصال هو دعوته للتسجيل في مركزم، باعتبار أن وائل في السجن وقد تم التخلي عن ملفه بعدما قام بتزوير شهاداته، وعند مثوله أمامكم سيكون الأمر سهل بين يديكم. ابتسم الجميع لهذه الفكرة وأشرق وجوههم بها، وبدأت على ملامحهم الموافقة على هذه الخطة، بل قالتها أسنتهم أيضا.

- لم أكن مخطئا عندما رأيت في اللقاء السابق أن تكوني معنا في هذا اللقاء، وتقديرا لفكرتك ستكونين معنا في اللقاء الذي من المحتمل أن يجمعنا كلنا مع غريب، وأفضل أن يكون اللقاء في قاعة الاجتماعات، حتى يكون اللقاء رسميا.

قالها الحاج يونس، وقد تورد وجه فوزية خجلا، ولبرهة كأنها تذكرت شيئا فقالت:

- ربما لا يمكنني الحضور معكم في اللقاء المرتقب مع غريب، لأن أسرته ستطردني من عملي إذا عرفتُ أنني أعمل ضد مصلحة ابنها. أجابها المدير.

- لا تعبئي بالأمر، نحن نبحث عن خادمة في قاعة المطبخ، إذا طردتك أسرته فستتغلين عندنا في المطبخ بنفس الثمن الذي تشتغلين به عندهم، وستقومين بنفس العمل الذي كنت تقومين به، كما أننا سنخصص لك مسكناً تسكنين فيه، وما التمسْتُ منك التواجد بيننا في اللقاء المرتقب إلا لتكوني شاهدة، والحقيقة أننا نستيق الأمر فقط، وإلا فلا أخالهم سيفصلونك عن العمل لهذا الأمر، بل سيعرفون حقيقة ابنهم، وسيعلمون أنك كنت تسعين للخير فقط.

أطرقت فوزية برأسها أرضاً، ثم حركته دلالة على الموافقة، قبل أن يستطرد الحاج يونس في حديثه، وقد وجه نظره هذه المرة إلى كل الجالسين أمامه، ليستقر نظره على وائل.

- لكن غريب إذا حضر إلى هنا فسيُحضر معه شهاداته، لا شهادتك أنت يا وائل.

سكت الجميع لما قاله مدير المركز برهة من الزمن، ثم بدا على وائل أن فكرة ما قد خطفت لبه فابتسم لها بمكر قبل أن يقول للمدير:

- أخبرني سيدي متى تود أن تتصل بغريب، وأي موعد ستحدده معه بالضبط.

قال الحاج يونس.

– سأتصل به بعد ساعة من الآن، أي في الساعة الثانية عشرة زوالاً،
وسأطلب منه الحضور غداً مع الساعة الحادية عشرة صباحاً، لأنني
سأكون في اجتماع رسمي هذا المساء.

أخذ وائل قلماً وورقة، وشرع بالكتابة على صفحاتها، قبل أن يقول:
– أستاذنكم، لحظة وأعود.

أذن له مدير المركز، فأشار وائل بيده من حيث لا يراه أحد، ما
مفاده أنه يقول لمن يخاطبه "اتبعني"، توجه وائل ناحية الباب، وقف
في زاوية من زوايا الردهة خارجاً، مال برأسه إلى الأمام كأنه يتحدث
في أذن شخص خفي، وأخذ يتمتم بكلمات، ثم أخرج الورقة التي كتبها،
فطارت لوحدها في السماء وكأنها تعرف طريقها للخروج، فخرجت
من المركز.

في هذه اللحظة دخلت سميرة على مدير المركز وضيوفه وهي
جاحظة العينين والذعر يرتسم على وجهها وصدرها ينزل ويعلو،
وهي تقول بصوت متهدج خائف:

– وائل.. وائل بالخارج يتحدث مع نفسه كالمجنون، ربما جن في
السجن، بل الأمر من هذا كله أنه أخرج ورقة من جيبه فطارت في
السماء وخرجت من الباب كأنها في فم طائر خفي يطير بها.

وما إن أكملت جملتها، وعيونهم مشدوهة على شفيتها والدهشة عقدت ألسنتهم، إلا ووائل يظهر خلفها متبسما، وما إن رآته حتى أطلقت صرخة مفزعة.

- خيرا أستاذة سميرة، ماذا في الأمر؟

قالها وائل وهو يتقدم نحو كرسيه ليجلس عليه، لكنها لم تجبه، فاستمرت العيون تلاحقه، ففهم مغزاها، فقال:

- خرجتُ لأتحدث في الهاتف الذي جلبه لي جمال عندما استقبلني بباب السجن، واستخدمت الأسلاك المتصلة بالهاتف والمؤدية للأذنين، ثم ألم تري يوما ورقة تأخذها الريح فتطير بها، رميتُ الورقة فطارت في الهواء.

طبعا لم تقتنع سميرة بما قاله فاستمرت ترمقه بشك، أما الحاج يونس وضيوفه فبدأ أنهم صدقوا وائل، لذلك قال الحاج يونس وهو يرجع إلى الموضوع الذي كانوا يتحدثون فيه:

- من يُذكرنا بالموضوع الذي كنا بصدد الحديث فيه؟ أه نعم تذكرت، كنتُ قلتُ كيف نضمن أن يأتي غريب بشهادات وائل؟

هنا أجاب وائل بثقة تامة في نفسه وكأنه يعلم ما وراء حجب الغيب.

- لا تهتموا لذلك، غريب سيجلب معه شهاداتي، ولا يُمكنه أن يحضر دون إحضارها.

التفت بعضهم إلى بعض، ثم التفت الحاج يونس إلى سميرة الواقعة بجوارهم كأنه أراد في هذه اللحظة أن يصدقها في جزء مما قالتها، وهو أن وائل أصابه الجنون في السجن، ولم يكن منهم أشد تخوفا من هذا الظن من هدى التي راحت ترقبه بشكل لافت وقد أحست بدمعتين ساخنتين تنزلان على خدها.

– من أين أتيت بهذه الثقة يا وائل، ومن أخبرك بهذا!؟

كان وائل قد أعد الجواب على هذا السؤال من قبل فقال بهدوء:

– لم يخبرني أحد، ربما أعرف غريب جيدا الآن، ولا يستطيع أن يترك الشهادات دون أن تكون معه دائما، فهو لا يثق في أحد، هكذا خمنت.

لم يصدقه أحد، كان جوابا ضعيفا، لكن الأمر يخصه هو، وهو الذي أغلق عليهم باب التفكير في وسيلة مضمونة لإحضار شهادته، لذلك أراد المدير إنهاء اللقاء، فدعاهم كلهم للحضور غدا في الحادية عشرة في قاعة الاجتماعات.

(31)

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا عندما صحت عينا غريب من نومهما، شعر بأنه استيقظ باكرا اليوم، رغب في النوم مرة أخرى لكن النوم لم يسعفه، جفونه رغم ارتخائها لا تُلبي طلبه، استلقى على ظهره في سريره وأخذ ذهنه يتأمل ويُفكر، فدار في خَلده تلك الليلة الرهيبة والغريبة في حجرته، لم يمر في حياته بحدث غريب مثله، تساءل مع نفسه وهو يُفكر عما أُخّر تمزيقه لشهادات وائل إلى الآن، هل هو ذلك الشيطان المجهول الذي هدده بأنه سيذهب بعقله أو يقتله إذا مزق شهادات وائل، أزاح هذه الفكرة من رأسه وهو يحركه بقوة حتى لا يبدو جباناً مع نفسه، ولكي يبرر لنفسه سببا آخر أخره عن تمزيق الشهادات دون هذا الهاجس الذي يراوده أخذ يفكر في مصير وائل، أليس وائل الآن في السجن، وقد انتهى كل شيء بالنسبة له، إذن تمزيق شهادته من عدمه سواء الآن، فلن تنفع وائل في شيء، وحتما ستتصل بي إدارة المركز عما قريب لآخذ مكان وائل، ولن يتأخر اتصالهم بي أكثر من يومين، فغدا ستنتهي المهلة التي أعطها المدير لوائل وسيتصلون بي حتما، هكذا كان يفكر غريب، وهكذا

أراح نفسه حتى لا يبدو مسخرة مع نفسه وبأنه أَخْرَقُ أَخْرَ تمزيق
الشهادات خوفا من مخلوق غير موجود.

دفع غريب كل هذه الأفكار بانزعاج وهو يرمي عنه غطاءه، جلس
على سريره، توجه ناحية الباب للخروج، في تلك اللحظة رمق ورقة
بارزة على مكتبه ومكتوب فوق سطورها بعض الجمل، أخذها
وقراها: "سيُتصل بك مدير المركز اليوم في الساعة الثانية عشرة
زوالاً، وسيطلب منك الحضور غدا على الساعة الحادية عشرة
صباحاً، فلا تنس أن تأخذ معك شهادات وائل".

نظر غريب إلى الورقة بتعجب واستغراب، مَنْ وضع هذه الورقة
هنا؟ وكيف علم بالأمر؟ التفت إلى ساعته فوجدها الثانية عشرة إلا
خمس دقائق، فهمهم: "إذا صدق صاحب الورقة في ادعائه، فسيتصل
بي المدير بعد دقائق معدودة، إذن لأنتظر هنا وأرى".

وما هي إلا لحظات حتى سمع هاتفه يرن، انقض عليه انقضاضاً،
فوجد أن رقم المتصل من المركز حقا، فتح خط الاتصال وقربه من
أذنه، فكان كما وجد في الورقة تماماً، مدير المركز يتصل به ويدعوه
للحضور غدا على الساعة الحادية عشرة صباحاً لأمر هام جداً.

إذن صدق صاحب الورقة، وليس هذا الأمر الهام إلا من أجل
التسجيل بشهاداتي في المركز، لكن لحظة، المدير لم يطلب مني
إحضار شهادات وائل! وكيف له أن يعلم بوجودها في حوزتي من

الأصل؟ لا بد أن أعلم من وضع الورقة هنا، ولا أحسب إلا المدير اتصل عبر الهاتف المنزلي فأخبرهم بأنه سيُعيد الاتصال بي في هذه الساعة لما أخبروه أنني نائم.

خرج غريب ليسأل أسرته عن الاتصال المفترض عبر الهاتف المنزلي الذي أتاه من المركز، فنفوا أن يكون أحدهم قد أجاب على اتصال عبر الهاتف المنزلي اليوم صباحاً، وأرشدوه أن يسأل فوزية عن الأمر، ولما سأل عن أمرها أخبروه أنها خرجت لبعض شأنها وستعود قريباً، فجزم أن تكون هي من أجابت على الاتصال ولما وجدته نائماً أخبرت المدير بأن يعيد الاتصال به في الساعة الثانية عشرة زوالاً وقت استيقاظه، فكتبت تلك الورقة حتى يكون على استعداد للأمر.

ولما استقر على هذا الاختيار، وجد نفسه كأنه سمع هذه البشري لهذه الوهلة، فدخل غرفته وأخذ يقفز في أرجائها فرحاً مبهجاً، ثم توقف عن قفزه وقال بمكر:

– أما شهادتك يا وائل فلن آخذها معي حتى لو قالها لي مدير المركز في اتصاله الهاتفي، وأننى له أن يعلم بوجودها معي، وتلك الورقة سأغض الطرف عنها كأنني ما قرأتُ بين سطورها حرفاً.

ثم بعدها اتصل بكمال يخبره بهذه البشرى السارة التي أنته هذا
الصباح على حين غفلة من أمره، وطلب منه أن يبيت معه اليوم في
حجرته حتى يذها معا غدا صباحا إلى المركز، فاستجاب لطلبه.

(32)

اليوم العاشر والأخير

استيقظ غريب اليوم باكرا، كيف لا والبشرى تنتظره، كيف لا يستيقظ باكرا وسيثبت اليوم لكل أفراد أسرته أنه يعتمد على نفسه ولا يحتاج لهم، أنه ليس بغبى ولا فاشل كما يصفونه، بل ذكي وها هو يشق لنفسه طريق النجاح، وما هي إلا خطوة أولى تتبعها خطوات وخطوات، كان كمال لا يزال يشخر على فراشٍ بجانبه.

يوم أمس عندما زاره حدثه عن الورقة التي عثر عليها، وما كُتب فيها، فلم يدرِ غريب لمَ قال لكمال حينها، أخاف أن يكون ذلك الشيطان الذي زارني تلك الليلة وأرعبني هو من كتب الورقة، رغم أنه أقنع نفسه بأن فوزية من كتبتها. كمال لم يصدِّقه عندما حدثه في ذلك اليوم بعد تلك الليلة عن تلك الغرائب التي رآها، فكان كمال يحرك رأسه كأنه يستمع لغريب بانتباه لكن لسان حاله يقول له: "كل ما تقصه علي يا غريب أحلام وكوابيس رأيتها في نومك، فصدقت أنك عشتها"، ولم يوافقه أمس كذلك عندما اتهم الشيطان الخفي بكتابة الورقة، فقال له على الفور:

- لا أخال ذلك يا غريب، ربما فوزية هي من كتبتها عندما استقبلت
اتصال المركز بك قبلك.

شرع غريب يهز كمال ويحركه حتى يصحو من نومه، ولما صحا
توجها إلى المطبخ، وجدا فوزية قد أعدت لهما فطورهما وهي تهم
بمغادرة الفيلا، التفت غريب إلى كمال وهو يتمتم بالقرب من أذنه:

- لا أعلم لم تكثر الخروج هذه الأيام، ودائماً نفس المبرر: "سأقضي
حاجة وأعود".

قال الكلمة الأخيرة وهو يقلدها بازدياء وسخرية، تناولا فطورهما
وعادا إلى حجرة غريب، لبسا ثيابهما، وتأكد غريب من أنه أخذ كل
شهاداته معه، أعاد النظر إليها ووضعها في حقيبته، وقال مخاطبا
كمال:

- أما شهادات وائل فسأتركها هنا تحت درج المكتب.

همَّ غريب وكمال بالخروج، مد غريب يده نحو مقبض الباب،
أداره، لكن الباب لم يتزحزح عن مكانه، نظر غريب في قفل الباب
ليتأكد من أنه غير موصل بالمفتاح، فوجده غير موصل بالمفتاح،
اقترب كمال من الباب ليحرب حظه رغم نحالته مقارنة ببدانة غريب،
فاستغربا من أن الباب لا يطاوعهما، وكأنه حائط لا يختلف عن
الحيطان من جانبه، يا للهول، ما الأمر؟ ماذا يقع هنا؟ لماذا لا يُفتح
الباب رغم أنه في الحقيقة غير مثبت بشيء؟ كاد غريب أن يصرخ

لولا خجله من كمال، هنا بزغت على قسّمات وجه كمال الرعب والخوف، ورأى ألا مجال من تصديق غريب فيما ادعاه عن تلك الغرائب التي عاشها، فقال له في حزم:

- غريب.. لابد أن نأخذ شهادات وائل معنا.

التفت غريب إلى كمال وقد فهم مغزى حديثه، لكنه همّ بالاعتراض فأردف كمال قائلاً:

- إذا لم نأخذها فلا يُمكننا الخروج من هنا، وبالتالي ستبدد فرصتك الأخيرة، أما شهادات وائل فسننظر في أمرها فيما بعد.

أخرج غريب شهادات وائل من درج مكتبه، أمسك بها، تقدم كمال نحو الباب، قبض على مقبضه، أداره، ففتح الباب وسط دهشتهم، هنا أراد غريب الاحتيال فقال بمكر:

- اترك الباب موارد وسأرد شهادات وائل إلى درج المكتب، وهيا نخرج بسرعة.

وما أن همّ غريب بردها حتى وجدا الباب قد أطبق في وجههما بقوة، فصرخا بقوة ثم كتما صرختيهما في نصفها، حاول كمال فتح الباب للهرب لكن لم يستجب، هنا صرخ في وجه غريب بعنف:

- قلت لك ناولني تلك الشهادات وأتني بها الآن، ولا تكن عنيداً.

قال غريب في ذعر:

- إن كان الأمر ولا بد منه فسأصنع بها كما ستري.

أخذ غريب ملفاً أصفراً وضع به شهادات وائل، وأتى بخيط أحمر لاصق أحكم به تثبيت الشهادات على الملف ثم ناوله لكمال، وطلب أن يدسها ويخبئها كمال في محفظته.

وضع كمال ملف الشهادات في محفظته، ومد يده ببطء صوب مقبض الباب، وعيونهما متخشبته على الباب منتظرين ما ستسفر عنه نتيجة هذه المحاولة، وما أن جر كمال الباب نحوه حتى فتح بيسر وسهولة، نظرا إلى بعضهما بفرع واستغراب، ثم هرولا إلى الخارج فقد تأخرا عن مواعدهما.

ما كان يجهله غريب وصديقه في هذه اللحظات الغريبة مع الباب هو جزء من خطة وائل بدأ في تنفيذها، فقد ناول وائل هوميروش يوم أمس الورقة التي كتب فيها ما قرأه غريب، وطلب منه أن يضعها في حجرة غريب، ثم كجزء آخر من الخطة طلب من هوميروش ألا يدع غريب يخرج من حجرته دون أن يأتي معه بالشهادات، لذلك كان هوميروش بهيئته الحقيقية التي تعطيه كغيره من الجن قوة وصلابة، هو الواقف بجسده على الباب، فلم يستطع غريب وكمال زعزعته.

(33)

في قاعة الاجتماعات في المركز التربوي كان الكل ينتظر قدوم غريب، فيمكنك أن ترى على رأس الاجتماع مدير المركز المهني الحاج يونس وعلى يمينه نائبه محمود، وعلى يساره الموظفة سميرة، وبجانب محمود يجلس الضابط أسامة، فقد استدعاه الحاج يونس وألح على حضوره حتى يشهد بنفسه ما ستؤول إليه الأمور، وقد طمأنه أنه لن يرفع دعوة على أحد، وبجانبه يجلس وائل ثم جمال ويقابلهما كل من هدى وفوزية.

تخطت الساعة الحادية عشرة بنصف ساعة، ولم يحضر غريب بعد، كان الحاج يونس ينظر إلى ساعته كل دقيقة، وينظر إلى وائل وجمال وإلى هدى وفوزية كأنه يقول لهم بأن خطتنا فشلت، وما هي إلا لحظات حتى استأذن حارس الباب ليُخبر الحاج يونس أن شخصين بالخارج يسألان عنه، فأذن لهما الحاج يونس بالدخول.

طُرق الباب فولجه مباشرة غريب وكمال، وكم كانت دهشتها قد بلغت منتهاها عندما اصطدمت أعينهم بهذا الجمع، وأنسهم ما يُبصرونه في هذه اللحظات الكلمات التي حفظوها ليعتذروا بها عن

تأخرهم، أخذ غريب يمسح عينيه على الحضور، فهذا مدير المركز الحاج يونس، وهذا محمود يعرفه، وسميرة التي تستقبل الشهادات يعرفها، وكان يتمنى أن يناولها شهادته وهو يتلصص على وجهها الأخاذ، ويتربص بعينيها السوداوين، وهذا الضابط أسامة يعرفه، لكن من أتى به إلى هنا؟ وماذا يفعل هنا بالضبط؟ ومن هذه الفتاة الجالسة مع فوزية؟ بل ماذا تفعل هنا فوزية بالأساس؟! كاد أن يصرخ في وجهها، يوبخها، بل يضربها إذا اقتضى الأمر، فما الذي تفعله هنا وقد تركت أشغال البيت، هذا هو خروجها لبعض شأنها إذن! ومن هذا الفتى الذي يجلس مع وائل؟ بل ماذا يفعل وائل هنا؟ أليس وائل بالسجن؟! ماذا يقع اليوم؟ سوف أجن، هل أنا أحلم أم ماذا؟ التفت إلى كمال وكأنه يتأكد مما يراه فقال له بصوت خافت:

- هل ترى كل هؤلاء الأشخاص الذين أراهم؟

حرك رأسه موافقا كأنه يقول: "نعم يا غبي أراهم، ومن لا يراهم، وقد أوقعتنا في فخهم بغبائك".

- اجلسا، اجلسا، وليعرّفنا كل واحد منكما عن نفسه؟

قالها الحاج يونس، فتقدما باستسلام ملحوظ ليجلسا بجانب فوزية فُبالة وائل مباشرة، وأخبر كل منهما عن اسمه، أما وائل فقد ابتسم بداخله عندما سمع صوت هوميروش هسيسا يخبره في أذنه أن

شهاداته مع كمال، ولم يدر وائل لمَ فكر في هذه اللحظة بالضبط بعماد ومراد، وتمنى لو أنهما يشاركانهم مجلسهم هذا في هذه القاعة.

- هل تعلم يا غريب لمَ اتصلتُ بك، ولمَ نحن مجتمعين هنا؟

قالها مدير المركز الحاج يونس وهو ينظر في وجه غريب ويوجه خطابه له، التفت غريب إلى كمال الجالس بجانبه وهو لا يدري بما يجيبه، فحسم أمره وقال بكلام جاف لا لباقة فيه.

- لا أدري.

- اتصلتُ بك ثم اجتمعنا هنا من أجل سبب واحد، وهو أن ترد لوائل شهاداته.

- ابتسم غريب بسخرية، ثم قال:

- عن أي شهادة نتحدثون، هل جننتم أم ماذا؟

هنا تحدثت فوزية موجهة خطابها لغريب، وقد علمت بما أنها تعرف طباعه وتعيش مع أسرته من أين ستأتي له، فانتقت كلماتها بعناية.

- ربما تتساءل يا غريب لمَ أنا هنا، أنا هنا من أجل أن نقنعك أخي بأن ترد الشهادات لوائل، لن يُجبرك أحد على فعل ذلك، أنت من ستردها له بكامل إرادتك، أنت هنا لست كمتهم بل كبطل، نعم كبطل، أتعلم لماذا؟ لأنك أنقذت شهادات وائل، لأن الله سخرك أنت بالذات كسبب لتحصل عليها وتردها لصاحبها، نعم كل من هنا لا يعلم بوجود

شهاداته بحوزتك، لكن أنا أعلم، أعلم أنها معك، وقد أمسكتها بيدي عندما أمرتني بحرقها، ولحسن الحظ أنني كنت أعرف وائل معرفة سطحية فقط، فتوصلت إلى حسابه الفايسبوكي فأخبرته بشأن شهاداته، أما أنت يا بطل فتستحق أكثر من هذا المنصب، ولم لا، اجتهد، ابذل كل ما في وسعك، وستكون السنة المقبلة ضمن المقبولين بهذا المنصب إن شاء الله، فبعزيمتك وإرادتك التي يخالونها عنادا هي التي ستجعلك ترقى لأعلى المستويات والدرجات، لكن بجدك واجتهادك، ثق بي، أنا أو من بك، أنت مثل أخي وأعيش معكم في منزلكم.

بدا التأثير على الجميع من كلمات فوزية الرزينة والهادئة، وقد تأكد للمدير مرة أخرى أنه لم يُخطئ عندما التمس منها الحضور، كان غريب متأثرا أيضا، بل كان شاكرا لها في أعماقه عن هذا الإثراء الذي ألقته عليه وسط الجمع، لكن غروره وعناده كانا أقوى، فنظر إلى كمال كأنه يستشير، فلم يجد منه موافقة أو رفضا، تركه لشأنه، وهنا غلب غرور وعناد غريب حلمه وصدقته فقال:

- صدقتم، الشهادات في حوزتي، لكن للأسف لم أحضرها معي اليوم.

نظر أغلب الحضور، وبالضبط من كان حاضرا في اللقاء السابق إلى وائل، ومن بينهم الحاج يونس، نظروا إليه نظرة ريبية وشك، بل نظرة عتاب ولوم، أما وائل فلم تؤثر فيه النظرات، ظلت الابتسامة

الهادئة مرسومة على وجهه، التفت إلى غريب وكمال والابتسامة ما تزال على حالها، فقال لغريب:

- بل الشهادات معكما يا غريب، أحضرتها معك.

هنا قال غريب بمكر، وهو يدفع بحقيته ناحية وائل:

- خذ حقيتي هذه وفتش بداخلها، فإن عثرت بها عن شهادتك، فخذها، وإن لم تجدها، فساخذ مكانك باعتباري أول المتواجدين بلائحة الانتظار، وكل من في القاعة شهود، ما رأيك؟

التفت كل من بالقاعة لوائل، وقد عم الصمت المكان، صمت الكل إلا من أنفاس هدى الخائفة، وأنفاس جمال الذي يلوم وائل في نفسه على أن أوقع نفسه في هذا الفخ، وأنفاس فوزية التي ضمت كفيها إلى فمها وهي تتم بهما كأنها تقوم بتسخينهما، ولم يكن الحاج يونس أقل خوفا منهم، أما باقي الحضور، فكانوا كأنهم يشاهدون نزالا بين وائل وغريب ويترقبون من ينتصر منهما، أما وائل فتحجر في مكانه بلا حراك كأن الوحي ينزل عليه في هذه الساعة، وما هي إلا وهلة حتى رفع رأسه نحو غريب مبتسما وقائلا:

- نعم أقبل هذا التحدي، لكن لن أفتش حقيبتك بل سيقوم السيد أسامة ليفتش حقيبة كمال، وسيجد شهاداتي في ملف أصفر، ويحيط بها خيط لاصق أحمر، فإذا أخطأت في معلومة واحدة ذكرتها، فإني أسلمك منصبى بإرادتي.

ذهل الجميع لما يسمعونه من وائل، انبهروا في أماكنهم، جحظت أعينهم، بل لم يبق أحد منهم إلا وفمه فاغر، ولم يكن أكثرهم ذهولا وارتباكا وأكثر حيرة من كمال وغريب، فقد تحجرا في مكانيهما كأنهما أصيبا بشلل، بل كأنهما صنمين، لم يُجب غريب وائل، ولم يفق من ذهوله إلا وهو يسمع التماس الحاج يونس من الضابط أسامة أن يُفتش حقيبة كمال، قام الضابط أسامة من مكانه، أخذ الحقيبة من كمال، وكمال غير معترض، بل مستسلم إلى أقصى حد، عاد إلى مكانه، والعيون كلها مشدوهة نحوه تراقبه، فتح حقيبته، وكما لم يكن أحد متوقعا، أخرج بالفعل كما قال وائل ملفا أصفرا ويحيط به خيط لاصق أحمر، وهنا كادت القلوب أن تقف، فمن يطيق أن يجتمع عليه انبهارين، من يستطيع أن يتحمل ذهولين، ازدادوا ذهولا، بل كاد أن يُغمى على سميرة من هول ما ترى وتسمع عندما تذكرت ما رآته منه أمس، ورقة تطير، والآن يعلم ما في الحقيبة، أكاد أجن، بل أنا مجنونة بالفعل، أما فوزية فبكت كأنها لم تبك أبدا خصوصا عندما رمقت الضابط أسامة يفتح الملف ويقرأ منها اسم صاحبها "وائل أبو الفضل"، بكت ولم تدرك لم تبكي، شاركتها هدى البكاء والفرحة، أما جمال فلم يعد يفهم شيئا، فقد أكل وائل بعينيه، ومحمود والضابط أسامة الذي يقرأ اسم "وائل أبو الفضل" يرتعشان، وقد تسمرت عيني الضابط على الشهادات، وهو يكاد لا يقاوم يدها من رغبتهما في إمساك

رأسه، أما الحاج يونس فقد شك أن يكون هذا خارق من الخوارق، فوجه خطابه لوائل، بعد خروجه من ذهوله.

- وائل، اصدقنا القول، ورقة تطير وتحدث مع نفسك، والآن كأنك تعلم الغيب، هل هذا جنون؟ أنت تمارس السحر، أم أنك تعاشر الكهنة، أم أنت نفسك كاهن وساحر، أخبرنا يا رجل؟

قال وائل في هدوء:

- صدقوني، والله لست ساحرا ولا أمارس السحر أو الكهنة، ولا يعلم الغيب إلا الله وحده لا شريك له، ما في الأمر هو تسخير رباني فقط، سخر لي أحد جنوده ليساعدني في استرجاع شهاداتي، وبما أنني استرجعتها الآن وانتهت معاناتي، فسينتهي هذا التسخير بانتهائه، ولا أستطيع أن أخبركم بأكثر مما قلته، ولن تروا مني منذ اللحظة ما يُريبيكم، فانسوا ما رأيتم أرجوكم، كأنكم لم تروه، فقد كنت مضطرا لذلك فقط.

خفت كلماته من روعهم، وعاد إليهم بعض صوابهم، فمد الضابط أسامة الشهادات للحاج يونس، ولأول مرة تبرز الابتسامة الصادقة من أفواههم، فانتصب الجميع وقوفا، عانق جمال وائل بحرارة وهو يبارك له، وكذلك فعل محمود واعتذر له عما تسبب له من سجنه، وكذلك فعل الضابط أسامة، وهو يبارك له انتهاء معاناته فيما يتعلق بشهاداته، ابتسم هدى كمن لم تبتم قط، وهي تردد "مبروك وائل

مبروك"، وكادت تدخله كله في عينيها، وكذلك قالت فوزية باحتفاء حقيقي، بل ما أدهش وائل أن كمال قام من مكانه، فعانق وائل، وهو يدعو له أن يوفقه الله في وظيفته هذه، بل الأغرب من ذلك كله، أن غريب أيضا قام إليه وعانقه بحرارة تحت تصفيق الجميع، وقد طال عناق له وطال التصفيق، وهنا تحدث غريب وهو يقف بجانب وائل.

- أيها الحضور الكريم أعتذر منكم جميعا، وأعتذر من وائل بالخصوص، وأعترف أنني كنت مخطئا في عنادي لعدم تسليمي الشهادات لصاحبها، فبالمناسبة تلك الشهادات وجدتها في حقيبة الحاسوب الذي اشتريته من شخص ما لا أعرفه، وقد عزمت على تسليمها للشرطة، بل ذهبت إليهم لفعل ذلك، لكن لما أعلمني كمال أنها تخص وائل وأن له نفس تخصصي، غلبني جشعي وطمعي فأردت أن آخذ مكان وائل بأن أبقيا عندي حتى تنتهي مهلة تسجيله، وليس ذلك إلا لأن أهلي يصفونني بالفاشل والغبي وغير ذلك من الأوصاف التي تحط من قيمتي، فاخترت هذا الطريق الخاطيء لأثبت لهم عكس ذلك، أردت أن أثبت أنني ذكي وناجح لكن على حساب وائل، فأعتذر منه ومنكم جميعا، وأرجو أن تقبلوا اعتذاري.

وما أن أنهى غريب اعتذاره، حتى بادر كمال ليعتذر أيضا على أن كان مساندا لغريب في طريقه الخاطيء، فلم يجدا من الحضور إلا قبولاً لاعتذارهما، وتحفيزاً لغريب على الاستمرار في جده واجتهاده وأنه سيصل يوما ما لما يصبو إليه، فتحولت الجلسة لاحتفال حقيقي من

الجميع وقد اندمج معهم غريب وكمال كأنهم كلهم على وفاق واحد،
وحينها وعد غريب وائل بأن يُحضر له حاسوبه أيضا، فهو ما يزال
يحتفظ به.

انفض الجمع، ورغبَ غريب أن يَرفق فوزية إلى مسكنهما، وقد
أحس اتجاهها لأول مرة بأخوة حقيقية، وتألم وندم على قسوته معها،
وكم كان يستصغرها ولا يعطيها قيمة، بينما هي رفعتَه أمام الجميع،
وجعلت له وزنا بينهم. أما هوميروش فقد ودع وائل وداعا لا لقاء
بعده، وقد حزن وائل لهذا الفراق، لكن لا بد منه فهذه هي سنة الحياة.

تمت بحمد الله